محاكم التفتيش



دار المعارف


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

محاكم التفتيش

نشأتها ونشاطها

الدكتور إسحق عبيد
أستاذ العصور الوسطى المساعد
كلية الآداب – جامعة عين شمس

الطبعة الأولى

١٩٧٨



تصميم الغلاف : نادية النحاس



الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

PER ME SI VA NELLA CITTÀ DOLENTE,
PER ME SI VA NELL' ETERNO DOLORE,
PER ME SI VA TRA LA PERDUTA GENTE,
GIUSTIZIA MOSSE IL MIO ALTO FATTORE;
FECEMI LA DIVINA POTESTATE,
LA SOMMA SAPIENZA E IL PRIMO AMORE.
DINANZI A ME NON FUR COSE CREATE.
SE NON ETERNE, ED IO ETERNO DURO.
LASCIATE OGNI SPERANZA VOI CH'ENTRATE !

(*DANTE*)



محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة : ٧

الباب الأول : الفكر المخالف فى غرب أوربا ١١

الباب الثانى : قيام محاكم التفتيش ولوائحها ٣٧

الباب الثالث : صور من نشاط محاكم التفتيش والصليبيات ضد الفكر المخالف ٥٧

الباب الرابع : مزامير الانتقام وزعماء الإصلاح ٧٥

الباب الخامس: كأس الأحزان ٩٩

الملاحق : وثائق استخدمت مادتها فى موضوع البحث : . . ١١٤

1 — De haereticis evitandis.
2 — De errores Abbatis Ioachim.
3 — De Indulgentis.
4 — Errores Beguardorum et Beguinarum.
5 — Errores Ioannis Wicleff.
6 — Errores Ioannis Hus.
7 — Errores Martinir Luther.
8 — Martin Luther on "Indulgences."
9 — Martin Luther's "Freedom to Preach."
10 — Veit Dietrich on "Luther's Prayers."
11 — Berthold von Regensburg on "Heretics".



مقدمة

موضوع محاكم التفتيش من أخطر موضوعات العصور الوسطى ، وهو قضية تحتاج إلى الكثير من الموضوعية لكى تبرز إلى النور صفحة من صفحات الصراع بين عالم العصور الوسطى وبين جماعات كانت قد ضاقت ذرعاً بأصول ونظم العصور الوسطى فراحت تبشر بقرب انبلاج نور فجر جديد .

ولا شك فى أن أدب وعقائد الجماعات المخالفة لفكر الكنيسة الرومانية قد تعرض للدمار ، بعد أن قامت محاكم التفتيش بإحراق هؤلاء المخالفين – الذين دمغتهم باسم « الهراطقة ». والأمر المحزن أن غالبية معلوماتنا عن تلك الجماعات نستقيها من أقلام أعدائهم .

من مصادر محاكم التفتيش لدينا ما وضعه المفتشون الكنسيون أنفسهم من أمثال برنارد جى (Bernard Gui) فى كتاب بعنوان : "Practica Inquisitionis heretice Pravitatis" ثم كتاب المفتش نيقولاس أميريك القطالونى بعنوان : "Directorium inquisitorum" (١٣٧٥) . ثم هنالك كتاب لبرنارد دى كومى (Bernard de Come) بعنوان : "Lucerna inquisitorum haereticae pravitatis" (١٥١٠) . إلى جانب هذا هنالك يوميات المفتشين الأسبان : جاك سمنكا ، وجان دى روياس ، ولويس دى برامو .

ومع قيام الثورة اللوثرية ضد الكنيسة الرومانية ، تشجعت أقلام المعارضة وراحت تهاجم محاكم التفتيش : من قبيل ذلك ما كتبه تندال ، ومارنكس دى سانت ألديجوند ، وفشارت ، وهانز ساخس . واضطرت الكنيسة الكاثوليكية أمام هذا الهجوم البروتستانتى إلى أن تتخذ موقف الدفاع عن محاكم التفتيش ، فراحت أقلام كاثوليكية تبرر قيام هذا النظام ، ووردت هذه التبريرات عند پاولو ساربى ، وبوسيه ، وأنطونيو ديانا ، وفرانسوا بينا ، وسيزار كارينا .

وفى سنة ١٦٩٢ طبعت مطابع امستردام أول كتاب علمى عن محاكم التفتيش ، بقلم كاهن بروتستانتى هو فيليبى لمبروخ (Philippi à Limbroch) ، وقد أهداه

الكاتب إلى رئيس أساقفة الكنيسة الإنجليزية فى كنتربرى ، وهو بعنوان :

"Liber Sententiarum Inquisitionis Tholosonae, ab anno Christi 1307 ad annum 1323" :

وقد ســـار على خطى لمبروخ الكاتب الإنجليزى ج . بيكر (J. Baker) سنة ١٧٦٣ .

وفى سنة ١٦٩٣ ظهر فى باريس كتاب بعنوان : "Histoire de l'Inquisition et de son origine". بقلم الأب جاك مارسولييه (Jacques Marsollier) .

وفيه تنديد بأساليب المحاكم وبقسوة البابوية . ولكن الكاتب يدمغ « الهراطقة » فى عنف بالغ أيضاً .

وفى سنة ١٨١٧ ظهر كتاب باللغة الفرنسية ، ثم ما لبث أن صدر الكتاب نفسه باللغة الأسبانية سنة ١٨٢٢ للكاتب الأسبانى چوان أنتونيو لورنتى (Juan Antonio LLorente) بعنوان (Histoire critique d'Espagne) ، وكان الكاتب قد شارك بنفسه فى خدمة محاكم التفتيش فى مدريد ، الأمر الذى سهل عليه الاطلاع على أرشيفات هذه المحاكم. وفى وقت متوافق مع إلغاء محاكم التفتيش فى أسبانيا (٢٢ فبراير ١٨١٢) أصدر نفس القلم وثائق هامة عن محاكم التفتيش فى مدريد فى جزءين : تناول الكاتب فيهما تفاصيل سير المحاكمات من عهد فرديناند وإيزابيلا حتى نهايتها . وقد ترجم هذا المؤلف إلى بقية اللغات الأوروبية الحديثة . ولا غرابة فى أن تنبرى أقلام الكاثوليك فى الدفاع عن محاكم التفتيش ، ولكن مثل هذه المؤلفات لا تخدم كتابة التاريخ العلمى الذى يسعى نحو إظهار الحقائق ، وإعطاء كل طرف ماله وما عليه . ولا يمكن حصر ما كتبه الكاثوليك ، ولكن نسوق هنا أهم ما تواتر ذكره عند المؤرخين المعاصرين :

هنالك كتاب لجوزيف دى ميستر (Joseph de Maistre) بعنوان :

"Lettres à un gentilhomme russe sur l'Inquisition espagnole"

وقد ظهر فى باريس سنة ١٨٢٢ . ومن هذا القبيل جاءت كتابات ك . ج . ڤون هفليه (Von Hefele) سنة ١٨٥١ ، و ف . ا . ج . رودريجو سنة ١٨٧٧ وغيرهم كثير .

أما الكتابة العلمية عن تاريخ محاكم التفتيش فقد بدأت بالكاتب هاهن (U. Hahn) بعنوان : (Geschichte der Ketzer. Stuttgart, 1845 - 1850).

ثم تلاه بنفس القدر من الحماس والجدية س . شمت :

"C. Schmidt: Histoire et doctrine de la secte des Cathares ou Albigeois . 1849."

وفى هولندة قدم الكاتب W. Moll قوائم بأسماء من تمت محاكمتهم أمام محاكم التفتيش فى هولندة (سنة ١٨٦٩) . كما أبرز A. Duverger (سنة ١٨٧٩) مادة علمية عن نشاط محاكم التفتيش فى الأراضى المنخفضة .

وفى سنة ١٨٨٠ أخرج الكاتب شارل مولنييه كتاباً ناقش فيه المصادر المعروفة والمجهولة فى المكتبة القومية بفرنسا وفى مكتبات كركاسون وتولوز وكليرمونت وفى أرشيفات الجارون الأعلى ، وعنوان الكتاب هو :

"Ch. Molinier : L'Inquisition dans le Midi de la France au XIIIe et au XIVe siécles. Paris, 1880."

ثم أتبع نفس الكاتب هذا الكتاب بكتاب آخر بعد سبع سنوات بعنوان :

"Etudes sur quelques manuscrits dės bibliotheques d' Italie, concernant l'Inquisition et les croyances heretiqnes du XIIe au XVIIe siécle. Paris, 1887."

أما العالم چوليان هاڤيه ، فقد طرق موضوعاً لم يتناوله كاتب آخر من قبله ، ألا وهو دور السلطة الزمنية فى محاكم التفتيش حتى القرن الثالث عشر :

"J. Havet: L'heresie et le bras sceulier au moyen age jusqu'au XIIIe siécle (Bibliotheque de l'Ecole des Chartes, 1880)."

وقد وفق الكاتب فى هذا المؤلف القيم ، رغم حداثة سنه وقت إخراج هذا الكتاب العظيم .

وفى ألمانيا تناول الكتاب الجماعات «المهرطقة» ، خاصة من أتباع والدو (الألبنجنزيين) ومن هؤلاء الكتاب ج . هرزوج J. J. Herzog وك . موللر (K. Müller) وو . پرجر (W. Preger) ، و هـ . هوپت (H. Haupt) . كذلك كتب ج . ف . لكلر (G.V. Lechler) مؤلفا عن المصلح الإنجليزى جون ويكلف . وأخرج ك . شوتموللر (K. Schottmüller) كتاباً عن الداوية ، و ج . ف . لكلر — أيضاً — عن المصلح التشيكى چون هس .

كما تناول الكاتبان ج . دولنجر (J. Dollinger) وف . هـ . رويك (F.H. Reusch) سيرة ونشاط المفتش الكنسى كونراد فون مربورج . وقد اهتم كتاب آخرون بنفس المفتش الكنسى كونراد ، من أمثال هورزوك Haursuch ، وهنكى (Henke) وكالتنر (Kaltner) (١٨٦١ ، ١٨٦١ ، ١٨٨٢ على التوالى) .

وقد تناول قصة محاكم التفتيش فى أسبانيا بعض الكتاب الأسبان منهم منيندز بيلايو .

"Menedez Pelayo : Heterodoxos Espanoles, Madrid, 1880."

ثم : "Procedimientos de la Inquisition, Madrid, 1886."

وفى إيطاليا تعرض الكاتبان إميليو كومبا (Emilio Comba) وفليس توكو (Felice Tocco) للفرق المخالفة فى الشمال الإيطالى ، الذين كانوا على صلة بالألبجنزيين . كما كتب باسكالى ڤللارى (Pasquale Villari) عن الثائر ساڤونا رولا .

أما الإنجليز فلم يهتموا كثيراً بقضية محاكم التفتيش — فى بداية الأمر — نظراً لأن إنجلترا لم تمس كثيراً بنشاطها كما كانت الحال فى القارة .

وأخذت المطابع تخرج الكثير من المراجع الحديثة عن محاكم التفتيش . وفى خلال كل هذا النشاط العلمى ، كان عالم مسن يعيش فى الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى وقد نجح فى جمع كل ما يتصل بمحاكم التفتيش من مادة علمية ووثائق ومخطوطات من مختلف أركان القارة الأوربية . وكان هذا العالم يملك مكتبة غنية وفريدة ، ألا وهو هنرى شارلى لى (H.C. Lea) ، الذى فاجأ العالم سنة ١٨٨٧ بإخراج ثلاثة أجزاء عن محاكم التفتيش ، ثم ما لبث هذا المؤلف أن ظهر سنة ١٨٨٨ فى نيويورك بعنوان :

"A History of the Inquisition of the Middle Ages".

وكان عمر الرجل عندما أنتج هذا الكتاب العملاق ثلاث وستون عاماً . وقد قوبل هذا البحث العلمى الجاد بإعجاب وتقدير كل المتخصصين على اختلاف مشاربهم . ومنذ ذلك التاريخ صار هذا المرجع عمدة فى موضوع محاكم التفتيش ، إذ لا يكاد يخلو أى كتاب ظهر بعد سنة ١٨٨٧ من إشارة ، بل ومن اعتماد صريح على هنرى شارلس لى .

الباب الأول

الفكر المخالف فى غرب أوربا

الأستاذ الدكتور
إسمت غنيم



الفكر المخالف فى غرب أوربا

ليس صحيحاً أن محاكم التفتيش قد ظهرت فى القرن الثانى عشر ، كما يعتقد الكثيرون ، وإنما فكرة اضطهاد الرأى المخالف لرأى الكنيسة قديمة قدم العصور الوسطى فى أوربا ، أى ترجع إلى القرن الرابع . فنى سنة ٣٨٥ قبض على المفكر الأسبانى بريسيليان (Priscillian) وأدين بسبب آراءه الغنوصية ، ثم أحرق بأمر من الإمبراطور ماكسيموس فى بلدة تريف (Treves)[1] .

---

(١) الغنوصية (Gnosticism) : جماعة اهتم أتباعها بالحياة الداخلية للإنسان الفرد ، وجاهد معلموها للانطلاق بالروح نحو خالقها وذلك بتعميق الصلة بين الروح الإنسانى والروح الأعلى فى السموات . والغنوصية تؤمن بالثنائية : فهناك الروح والمادة منذ البدء ، كما أن الخير والشر قديمان وصنوان . وبينما يعتقد الغنوصيون فى سرمدية الشر ، ترى الكنيسة أن الشر لم يظهر إلا بعد سقوط آدم وطرده من الجنة . والصراع مستمر — عند الغنوصيين — بين إله الخير وإله الشر ، ولذلك فعلى المرء أن يجاهد الجهاد الحسن ضد المادة بغية إعلاء الروح ، ولا يتأتى الخلاص إلا بإيثار الصالح الجماعى على المصلحة الأنانية ، وكبح جماح الذات حباً فى الأكثرية ، والحرص على المشاركة الأعم بدلا من الربح للواحد . والله — عند الغنوصيين — هو أصل الخير والنور والمحبة ، ومنه تنبثق الأيونات التى تحمل فى إشعاعاتها نبض الخير والدفء . وكلما بعدت الأيونات عن مصدر انبثاقها قلت درجة الدفء أو الفعالية الربانية . وعالمنا المادى من خلق أيونات يطلق عليها لفظة « الطغمات » [Demiurgus- Archontes] ، وهى من طبيعة أقل من طبيعة الأصل الأول المنبثقة منها . وعلى هذا فإن الغنوصيين يرون أن العالم لم يخلق بيد الله ، وإنما من خلق أيونات أدنى من القوة الأعلى. وهذا يفسر حالة اختلاط النور بالظلام ، والخير بالشر فى هذا العالم .

ويقسم الغنوصيون النفس البشرية إلى ثلاث طبقات : الأولى وتعرف « بالروحانية » وهى عامرة بالنور والخير ، والثانية وتعرف « بالنفسية » وهى تحوى نصيباً متوازناً من النور والظلام جنباً إلى جنب ؛ والثالثة وتعرف « بالشريرة » وهى مادية تماماً ودامسة الظلام .

وأصحاب الطبقة الأولى فوق القانون الأرضى ونظمه المادية لأنهم خلو من الصراع . وأصحاب الطبقة الثانية لا مفر لهم من القانون والمجاهدة لمغالبة الجسد ونصرة الروح ، أو نفى الظلام بالمزيد من نعمة النور ، أما الطبقة الثالثة فهى نهب لأحط الغرائز ، والشهوات ، وهم أعداء النور ولا يعملون إلا فى الظلام .

والمرء — فى قنطرة العبور من العالم الفانى إلى العالم الباقى — لا بد له من أن يتسلح بالمعرفة (Gnosis) ، =

والواقع أن الآباء الباكرين ، وبخاصة أورجين السكندرى رفضوا فكرة اضطهاد الفرق المخالفة للمذهب الكنسى الرسمى . وقد جاء المثل من موقف قسطنطين الكبير الذى أصدر مرسوماً سنة ٣١٣ م يقرر فيه مبدأ التسامح مع كل الآراء والمذاهب الدينية المسيحية جنباً إلى جنب مع المذهب الوثنى .

غير أن سياسة الإمبراطورين ڤالنتنيان الأول (٣٦٤ — ٣٧٥) وثيودوسيوس الأول (٣٧٨ — ٣٩٥) اتسمت باضطهاد المخالفين لرأى الكنيسة ودمغتهم السلطات الكنسية بلفظة « الهرطقة » . وهذه كلمة يونانية الأصل ومعناها الرأى المستقل أو الاجتهاد الفردى . وابتداء من مطلع القرن الرابع استعملت الكنيسة هذا اللفظ لدمغ من لا تتساوق آراؤه مع قانون الإيمان الكنسى وما اتفق عليه فى المجامع الكنسية المبكرة .

وقد نادى واحد من كبار الآباء الباكرين هو يوحنا ذهبى الفم الأنطاكى (٣٤٧ — ٤٠٧) بضرورة حرمان المهرطق من حرية الكلام أو التجمع ، ولكنه استنكر أن يعدم أى هرطيق لأن الحكم بالموت إدخال لجريمة على الأرض لا تقبلها السماء . أما القديس أغسطينوس (٣٥٤—٤٣٠) فقد اقترح عقاباً مخففاً (temperata severitas) ضد المهرطقين كالغرامة المالية أو الجلد .

ومن القرن السادس حتى القرن التاسع لم يتعرض الهراطقة للاضطهاد ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى قلة أعدادهم وأنهم لم يكونوا يمثلون خطراً على الكنيسة . ولكن فى نهاية القرن العاشر بدأت موجات الاضطهاد ضد الهراطقة ، وصعد الأمر إلى أن نصل إلى القرن الثانى عشر فنجد فقهاء القانون الكنسى وعلى رأسهم أنسلم من لوكا (Anselm of Lucca) وإيڤو من شارتر (Ivo of Chartres) يؤكدون ما ورد فى مجموعة قوانين جستنيان من إدانة للهراطقة والحكم عليهم بالموت[٢] . على أن أول من قرر عقاب الهراطقة بالموت حرقاً هو بطرس الثانى ملك أراغون ، وذلك فى سنة ١١٩٧ .

ويرتبط اسم البابا انوسنت الثالث بقيام محاكم التفتيش بصفة قانونية ، فهو الذى

=التى تمهد له سبيل ذوبان الجزء فى الكل بعد قتل الجانب المادى وإعلاء القبس الروحى فى النفس الآدمية . وحياة الغنوصى الكامل هى حياة التقشف والزهد ، وهو متبتل لأن الزواج متعة وشهوة مادية ، وقمة ما يصبو إليه هو اندماج فى الآب فى ملكوت السموات ، فى الروح الأكبر .

(٢) "De edicto imperatorum in damnationem haereticorum."

أرسى قواعدها وأشرف على الحملة الصليبية الموجهة ضد هراطقة الجنوب الفرنسى فى أوائل القرن الثالث عشر .

والواقع أن الفكر المخالف لفكر الكنيسة الرومانية نشأ بين الجماعات الساخطة على حياة المدن وفحش أثريائها . وقد اتخذ هذا الفكر طريقتين : إما الهرب إلى شركة الرهبانية على قمم الجبال وفى البرية ، وإما الانضواء تحت لواء إحدى الفرق « المهرطقة » . ويمثل الرهبان جماعة المثاليين أو المقاومة السلبية ، إذ راحوا من بيوتاتهم وصوامعهم يرنون إلى « المدينة الفاضلة » فى ملكوت السموات . أما الهراطقة فهم بحق جماعات الثوار - حسب مفهوم العصور الحديثة - الذين قبلوا التحدى ودخلوا فى صراع رهيب ضد النظم الكنسية والعلمانية المستبدة .

ولسنا نبالغ إن قلنا بأن الرهبان والهراطقة يجمعهم فى صعيد واحد ذلكم الضمير المتمرد الساخط ، وإن اختلف أسلوب التمرد . كذلك ندهش عندما نكتشف أن هذين الفريقين هما أقرب الناس إلى جوهر الدين وبساطته الأولى قبل أن تتناوله الكنيسة بأساليب الكهانة والوصاية على الأرض .

وتتضح أساليب الوصاية فى المزاعم البابوية ومناداة البابا بأهليته فى أن يستبد بأرواح البشر ، وفى تلك الحكومة الثيوقراطية المتمركزة فى روما ، عندما صار الكاهن والأسقف فى كل ربع من ربوع غرب أوربا مجرد أداة لتنفيذ الرغبة البابوية .

ولعل أشد ما كان يبعث على الضيق من رجال الدين فى العصور الوسطى تلكم الحصانات الكنسية بحيث لم تكن يد العدالة العلمانية لتمتد إليهم مهما بلغ الجرم ، وترك أمرهم إلى المحاكم الكنسية .

كما كان التبتل (عدم الزواج) الذى فرض على رجال الدين منذ القرن الحادى عشر يمثل عازلا بينهم وبين المجتمع الذى عاشوا بين ظهرانيه ، وصاروا لا يعترفون بولاء لأحد سوى الكنيسة .

ولما أن اشتبكت السلطتان الدينية والزمنية فى صراع دموى فى القرن الحادى عشر ، تحول صعيد أوربا إلى ساحة من التوتر الدائم ، وفى أثناء هذا الصراع بين الأمير والكاهن خرجت البابوية عن حدود صلاحيتها ، فدخلت المعارك ولطخت يدها

بالدسائس . وذهل الناس عندما رأوا كاهن الله فى زى قيصر ، ممسكاً بالسيف وبيارق الحرب ، فراحوا يترحمون على السلام العالمى وعلى « مدينة الله » .

شاعت فى أثناء ذلك سيرة سيئة عن سلوك كثير من رجال الدين ، ولعل أبرز رذائل العصر كانت دفع الرشوة للحصول على المناصب الدينية (السيمونية) . ويورد المؤرخ لى (Lea) عـــدة أمثلة على ذلك : فقـــد كان الأسقف ليبولد من ورمز رجلا خشن الطبع ويحمل السلاح وينزل الأذى بالآخرين إلى حد أن شقيقه صارحه ذات يوم بالقول : « يا أخانا الأسقف ، إن فرسان العالم الإقطاعى أقل ضراوة منك فى مسلكك ، لقد كنت تخاف الله قليلا قبل دخولك سلك الدين ، ولكنى أراك اليوم لا تخشى السماء ، فرد عليه الأسقف قائلا : عندما نلتقى يا أخى أنا وأنت فى جهنم قد أبادلك مقعدك »[٣] .

المثال الآخر يظهر فى سلوك الأسقف فيليب ده دريه (de Drux) الذى كان قد تمرد ضد الملك الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد . فلما أن وقع الأسقف أسيراً فى يد ريتشارد ، راح يستنجد بالبابا سلستين الثالث ، وأرسل البابا إلى الملك يطلب منه العفو عن الأسقف . ولكن ريتشارد بعث إلى البابا بلباس الحرب المضفر بشرائح الحديد الخاص بالأسقف الأسير ومعه العبارة الآتية : « هل هذا هو رداء ابنكم الأسقف يا مولانا البابا ؟ » فما كان من البابا إلا أن طلب من ريتشارد التشديد فى سجن الأسقف . وفى ســـنة ١١٩٨ فاحت رائحة فضائح كبير أساقفة بيزانسون المدعو جيرارد دى روجيمونت (de Rougemont) ، وكذلك مخازى ماهى دى لورين أسقف تول ، الذى كان غارقاً حتى أذنيه فى وحل الرشوة ورحلات الصيد ، بل إنه قام سنة ١٢١٧ باغتيال خصمه رينوه دى سنليس .

ويحدثنا القديس برنارد دى كليرڤوه نفسه بأن الفساد بلغ حداً بات الأساقفة معه من زمرة الغلمان الطائشين . وعرف عن مندوبى البابا (القاصد الرسولى) أن جيوبهم باتت تحشى بالفضة والذهب فى جولاتهم التفتيشية . ولقد شكى رهبان الداوية إلى البابا اسكندر الثالث بأن القاصدين الرسوليين باتوا يعبدون صنم المال .

See Lea, H.C., Histoire de l'Inquisition au moyen age, (French Translation), 3 Vols., Paris, 1900 - 1902, Vol. I, PP. 12 - 20, 51.

ولما أن يئس دعاة الإصلاح من فساد الكنيسة ، قصد روبرت جروستست (Grosseteste) إلى بلاط البابا أنوسنت الرابع ، ولما لم يجد أذناً صاغية صاح فى وجه البابا : « الويل لكم من صنم المال — هو ذا يشترى كل شهوة مادية ، وبخاصة فى بيت الفاتيكان »(٤) .

ولقد عرف عن الديوان البابوى تورطه فى إصدار الخطابات المزيفة لمنح الغفران ولتحقيق مآرب أخرى للأمراء والنبلاء فى سائر أركان القارة الأوربية ، واشتهر عن المحاكم الأسقفية تردد شهود الزور واختفاء ملفات كبار المتهمين من ذوى النفوذ .

وكلما علت قباب الكاتدرائيات الفاخرة ، كان عامة الناس يرون فيها تحدياً كنسياً لا يخدم سوى الطقوس الجوفاء من قوت وسواعد الفلاحين والطبقات الدنيا .

ولعل أشد ما أغضب الناس من رجال الدين حق الغفران الذى وضعه الكنسيون فى جيوبهم يمنحونه لمن أرادوا مقابل دفع مادى : ولقد ظهر الغفران (Indulgence) بشكل مميز عندما دعى البابا أوربان الثانى إلى الحركة الصليبية فى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥ معلناً غفران خطايا كل من يحمل السلاح للقتال فى الشرق !

بل إن الغفران وجد من كبار المفكرين فى القرن الثانى عشر من يصنفه إلى درجتين ، فهناك غفران للذنوب (Coulpe) وهو — فى زعمهم — ينجى من نار جهنم ، وهناك غفران من القصاص (Peine) ينجى من المطهر . وجاء اللاهوتيان اسكندر من هيلز (Hales) ، وتوما الأكوينى يفسران بأن الغفران يرفع المرء من المطهر إلى الفردوس . وصارت تجارة الغفران تجارة رابحة يثرى من دخولها البابا وكبار رجال الدين وصغارهم أيضاً ، حتى تندر بها الناس على كل لسان :

"Le cose della guerra andcvan zoppe
I Bolognesi richiedean danari
Al Papa, ad egli rispondeva coppe.
E mandava indulgenze per gli altari."(٥)

* * *

(٤) Lea, op. cit., P. 20.

(٥) Quoted from Lea, op. cit., P. 51.

فى أثناء ذلك كله ، كانت أوربا الغربية تشهد قيام المدن ونموها استقلالا عن سيطرة الأسقف والنبيل الإقطاعى ولكأنها جزائر تتوالد الواحدة تلو الأخرى وسط محيط زراعى شاسع . وفى نفس الوقت كانت الجامعات تشهد فكراً حرًّا يتلمس طريقه رغم أنف رجال اللاهوت. وسرت فى القوم روح التمرد والغضب : التى وضحت إرهاصاتها فى الكوميديا الإلهية لدانتى ، وفى آراء المعلم بطرس أبيلارد فى باريس (١٠٧٩ — ١١٤٢) ، وفى معمل روجر بيكون فى أكسفورد (١٢١١ — ١٢٩٢) ، وفى صيحات الراهب إيكهارت فى كولونيا (١٢٦٠ — ١٣٥٧) مبشراً بحياة البساطة والزهد .

كذلك كانت نقابات العمال والحرفيين من غزالين ونساجين وبنائين تتخذ مكانها على الأرض وتنشد لحن « المساواة » التى عاش فى ظلها البسطاء من صيادى الجليل .

لقد شهد القرن الثانى عشر حركة غضب جارف ضد الكنيسة ، امتد نطاقه فى ربوع البلقان وشمال ووسط إيطاليا وجنوب فرنسا وأسبانيا وبلاد الراين والأراضى الواطئة وأواسط ألمانيا من كولون حتى جولزار . وعرفت غالبية هؤلاء المتمردين الساخطين بالأطهار أو « الأنقياء » .

واللفظة إغريقية الأصل (Katharoi) ، ومعناها «الذين يحيون حياة النقاوة والزهد » وقد أطلق عليهم المعاصرون أسماء متباينة ، فهم النساجون ، أحياناً ، وفقراء لومبارديا أحياناً أخرى ، أوفقراء ليون ، وأتباع والدو ، والألبجنزيين ، والبوجومال (Bogomiles) وأتباع أرنولد ، والزهاد . والواقع أن هذه الجماعات الساخطة قد اتخذت أسماءها من مراكز انتشارها أو من أسماء زعمائها ، ولكنها جميعاً تنضوى تحت لواء « الأطهار » . ومن هذه الكلمة (كاثارى — الأطهار) اشتق الألمان الكلمة الدالة على الهرطقة (Ketzer). ولعله من المفيد أن نتتبع فكر « الأطهار » منذ بدايته .

يرجع بعض الكتاب تعاليم الأطهار إلى أفكار مانوية ومسدكية وبوذية ومسيحية فى آن واحد . وينصب اهتمامهم فى الدرجة الأولى على إيجاد حل لمشكلة الصراع بين الخير والشر . ونحن نعلم أن « الأطهار » فى أوربا قد طلقوا تعاليم مانى وتبنوا أفكار تلميذيه بولص ثم حنا السموساطى (Jean de Samosate) . وقد ظهر زعيم آخر اسمه قسطنطين بوغونات أضاف بعض التعاليم إلى فكر « الأطهار » (٦٦٨ — ٦٨٥) .

والواقع أن آراء « الأطهار » البولصيين ظهرت أول الأمر فى أرمينيا ، وقد حاول الأباطرة البيزنطيون ليو الأيسورى وميخائيل كيروپالات وليو الأرمينى وتيودورة قمع هذه الحركة دون جدوى . وفى منتصف القرن العاشر اتبع معهم الإمبراطور البيزنطى أيضاً حنا زيمسكس سياسة التسامح ، ثم نقل جالية منهم إلى إقليم تراقيا ، ومنها انتشروا فى أوربا كلها . كذلك نسمع عنهم عند المؤرخة أنا كومنينا فى كتابها الكسياد ، إلى حد أن والدها الإمبراطور الكسيوس كومنين قد دخل مع نفر منهم فى جدال طويل فى بلدة فليبوبولس [٦] .

يعتقد الأطهار فى ثنائية الوجود ، فهنالك عالم الخير والروح من خلق هورمازد وهناك عالم الشر والمادة من خلق أهرمان . والله هو خالق العالم غير المرئى الروحى والأزلى ، أما أبليس فهو مبدع العالم المادى . وإله العالم القديم (يهوه) هو الشيطان ، أما أبناؤه وأحباره فهم كاذبون ، وعلى ذلك فهم يرفضون « العهد القديم » رفضاً كاملاً — أما العهد الجديد ، فإنهم يؤمنون به ، نظراً لما فى تعاليم المسيح من روحانية كاملة ونبذ للماديات والأرضيات . وعندهم أن المسيح قد جاء ليهدم مادية « العهد القديم » ومملكة ابليس ، مبشراً بملكوت السموات . وهم يؤمنون بتناسخ الأرواح ، ولكنهم يرون فى قربان الكنيسة خداعاً ونفاقاً ، ولا يجدون مبرراً لطبيعة وظائف رجال الدين ، إذ لاوساطة — عندهم — بين العبد وربه. أما الكنيسة فهى امتداد للمعبد القديم ، ولذا فإنهم لا يدخلونها ، لأنها خالية من سلام الروح . وهم لا يقبلون فكرة الأسرار الكنسية ، ولا المطهر ويتبذون الأيقونات ، واشـــد ما يؤرقهم فكرة الغفران ! [٧]

كانت أول جولة صاخبة للأطهار فى النصف الثانى من القرن العاشر فى بلغاريا حينما هبوا ضد أمراء الإقطاع ، على أمل تحطيم قيود العبودية والارتباط بأرض السادة كما ترتبط

---

(٦) عرفت هذه الجماعة باسم « البولصيين اشتقاقاً من اسم القديس بولص الرسول الذى كان يراعى حياة البساطة واليسر فى تبشيره للأميين » .

(٧) Petri monachi coenobii vallium cernaii Histoira Albigensium, in P.L., Vol. 213, cols. : 543-742 : "...quod haeretici juos constituebant creatores, invisibilum scilicet, quem vocabunt benignum Deum, et visibilum, quem malignum Deum nuncupabant. Novum Testamentum benigno Deo, Vetus vero maligno attribuebant...".

السائمة بسواقيها. ثم ظهر لهم زعيم يدعى بوجوميل[٨] (Bogomil) ومعنى اسمه « المحبوب من الله » ، وقد حرض بوجوميل أتباعه على التمرد ضد السلطة لأنها تجسيد لتحكم الشر على الخير ، وشجع على احتقار رجال الإقطاع من مصاصى الدماء ، وبعث الحماس فى دماء العبيد يحضهم على الامتناع عن الخدمة. وسرعان ماسرت تعاليم بوجوميل إلى الصرب والبوسنية ، الأمر الذى دفع البابوية على عهد أنوسنت الثالث وهو نوريوس الثالث إلى تحريض ملوك المجر لقمع الحركة دون هوادة . وفى سنة ١٢٣٤ دمر جيش المجر إقليم البوسنية بالحديد والنار وذلك تحت ستار حملة صليبية بإيعاز من البابوية .

وقد نادى هؤلاء الأطهار بالمساواة بين جميع أفراد المجتمع ، وامتنعوا عن المشاركة فى الحروب ، وأحجموا عن ذبح الحيوانات ، ورأوا فى الحملات الصليبية مذابح

---

(٨) هو جرميا بوجوميل الذى بدأ يبشر بتعاليمه سنة ٩٢٧ . وقد التف الناس حوله لأن تعاليمه كانت مناهضة للنفوذ الهاير ياركى البيزنطى الزائف والمراسيم الطقسية المعقدة المرتبطة بكنيسة القسطنطينية. كما أن السلاف رأوا فى تعاليم بوجوميل شعوراً وطنياً ضد مخالب السلطات البيزنطية الكريهة فى بلغاريا . وهناك من الكتاب من ينكر وجود شخصية تاريخية باسم جرميا بوجوميل ، وإنما هم يعزون تعاليمه إلى شخص يدعى يوحنا تزوريللاس (Tzourillas) ؛ الذى هجر زوجته وثروته وانخرط فى سلك الرهبانية ، وراح يجوب بلدان تراقيا يبشر بحياة العفة والزهد . وبعد أن أصبح جرميا رئيساً لأحد الأديرة مكرت به السلطات الحاكمة فقدمته للمحاكمة ولفقت له اتهامات لا أخلاقية وشاذة .

وكلمة بوجوميل هى الترجمة البلغارية الحرفية لكلمة ثيوفيلوس اليونانية ، ومعناها « المحبوب من الله » . والكلمة من شقين : « بوج » بمعنى الله ، و « مليوى » وهى صفة بمعنى محبوب (Bog-miloui) .

وأتباع بوجوميل لا يقبلون التفسير الحرفى للأناجيل ، بل يعتبرون إصحاحاتها مجرد رموز لا تؤخذ على علاتها . أما العهد القديم فإنهم يلفظونه كلية . وهم لا يقبلون العماد بالماء ، ولا يحترمون الزواج ، ولا يعتقدون فى تحول قربان التناول الكنسى إلى جسد ودم السيد المسيح ، وهم أعداء أشداء للأيقونات والصلبان والتماثيل ، ولهم نظرية فى الخلق مؤداها أن الله الأب له إبنان هما شيطانيل والمسيح . وشيطانيل هو الأكبر وكان له حكم السموات ، إلا أن العجرفة والكبر قد سيطرا عليه فغوى وتمرد ، فطرده الأب من ملكوت السموات هو وملائكته . ثم خلق الأب العالم وآدم من الطين ، ونفخ منه نفساً حية . إلا أن شيطانيل راح ينغص على آدم بكارته الأولى ويغويه إلى طريق الإثم . ولهذا فإن الأب نفث « الكلمة » وهى المسيح لتصير لحماً ودماً لتغلب شيطانيل وتحرر الآدمية من أغلاله . وبالتجسد سقطت مملكة شيطانيل المادية ، وصار يدعى منذ ذلك الوقت باسم إبليس . وقبل صعود المسيح إلى جانب أبيه فى ملكوت السموات نفخ الروح القدس لكى يتم الصلاح على وجه المسكونة . والروح القدس يحل بوجه خاص بين أبناء البوجوميل ليعززهم ويمهد لهم طريق الخير والسبيل إلى النعيم الخالد . ويصورون الأب فى صورة شيخ هرم ، والابن فى صورة شاب يافع ، والروح القدس على صورة صبى برىء .

See Songeon, R.P.G., Histoire de la Bulgarie, Paris, 1913, PP. 171 - 179.

بشرية من تدبير الكنيسة . ولم يلجأ البوجوميليون إلى حمل السلاح إلا بعد أن اكتووا بنار الحملات الصليبية ضدهم ، فحملوا للدفاع عن أنفسهم وهم كارهون . وهم يجعلون المثل الأعلى لحياتهم مما ورد فى موعظة المسيح على الجبل[٩] .

وقد ترجم الأطهار الإنجيل على اختلاف بلدانهم — إلى لغاتهم المحلية (Vernacular) كرهاً من جانبهم للسان الكنيسة اللاتينية . وعندهم ألقاب ودرجات روحية ، فهناك الابن الأصغر والابن الأكبر . ويرتبط من ينضم إلى هذه الجماعة بالعهد (La Convenansa) ، وبعدها يتعهد بالامتناع عن تناول اللحم والبيض والألبان وكل ما هو ليس بنباتى أو مائى فى جوهره . وعليه ألا يكذب ، وألا يحلف ، وألا يسير بمفرده إن توفر له على طريقه « أخ من الجماعة ، وألا يتنكر لعقيدته حتى لو عذب بالنار أو الحديد أو الغرق . وبعد هذه التعهدات يضع كبير من كبارهم إنجيل يوحنا على رأس العضو الجديد وهو يتلو آية : « فى البدء كان الكلمة . . . » ثم يرتدى لباساً خاصًّا ويتلقى قبلة السلام . وبهذه الطقوس يكون العضو قد شارك فى « عماد الروح » (Consolamentum) ؛ ومن ثم فإنه يطلق كل ما هو مادى ويسلك بالروح فقط .

ولهم أسلوب عجيب مع من يشتد به المرض من أبناء الجماعة فهم يخيرونه بين الموت كشهيد أو كمعترف ، فإن هو اختـــار « الشهادة » فإنهم يحضرون وسادة (untertuch) ويكممون بها فمه بإحكام حتى يموت ، فى حين تقف فرقة من المنشدين ترفع الترانيم المناسبة للموقف . وإن هو اختار الاعتراف ، فإنه يحرم من الطعام ثلاثة أيام كاملة ، فإذا ما قدر له أن يعيش رغم هذا العناء (endura) الذى يكابده عن طيب خاطر ، فإنه يبرهن أيضًا عن صلابة روحه واحتقار جسده ، فيخلعون

---

(٩) طوبى للمساكين بالروح ، فإن لهم ملكوت السموات ، طوبى للحزانى فإنهم يتعزون ، طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطاش إلى البر فإنهم يشبعون ، طوبى للرحماء فإنهم يرحمون ، طوبى للأنقياء بالقلب فإنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام فإنهم أبناء الله يدعون ، طوبى — للمضطهدين فإن لهم ملكوت السموات . . . أنتم ملح الأرض فإذا فسد الملح فبماذا يملح . . . لا يمكن أن تخفى مدينة مقامة على جبل . ولا يوقد سراج ثم يوضع تحت مكيال ، وإنما يوضع على منارة لكى يضىء لكل من فى البيت . فليضىء نوركم هكذا أمام الناس حتى يروا أعمالكم الصالحة ، فيمجدوا أباكم الذى فى السموات » .

عليه لقب « الكامل » (Perfectus) . والواقع أن كثيرين من « الأطهار » كانوا يقلبون على الانتحار بالسم أو بقطع الشرايين ، ولكأنهم يشتهون الموت .

ولعل الإشارة إلى صلواتهم توضح مدى زهدهم فى الحياة الدنيا ، فهم يصلّون ضارعين : « أيها الرب ، لا تترأف على جسدى فهو فاسد ، ولكن ارحم روحى واطلقها بسلام من سجنها المادى[١٠] » .

ومن هذه القناعة بالزهد بلغت أيام صيامهم فى العام ١٢٠ يوماً ، هذا إلى جانب الاكتفاء فى قوتهم بالخبز والماء. ولقد عافت الجماعة فكرة الزواج ، وإن سمح بها ينبغى أن تتوقف العلاقات الزوجية بين الرجل وامرأته بعد الإنجاب الأول مباشرة . على أن الغلاة كانوا يتجنبون حتى مجرد لمس النساء ، وقد ورد فى سجلات محاكمات بلدة تولوز (سنة ١٣٠١) أن رجلا من « الأطهار » طلب من ابنته ألا تلمسه طيلة حياته ، ولم يسمح لها بالاقتراب من فراشه وهو يحتضر . وتقوم الكراهية للزواج عندهم على أساس أن الخطيئة الكبرى قد دنست العالم البكر وآدم الطاهر عندما عرف آدم حواء . لقد كانت هذه « المعرفة الجنسية » تعرية للآدمية أمام عورتها الكبرى ، فسقطت الروح وضاع الطهر ، ودخلت الأبالسة إلى جنة عدن فأفسدت كل شيء ! !

وقد ظهرت جماعة من « الأطهار » فى لمبارديا بإيطاليا ، واستقت اسمها من بلدة كونشوريتسو (Concorrezo) ، وأخرى فى بلدة بانولو (Bagnolo) . وتعتقد هاتان الجماعتان — إلى جانب ما سبق ذكره من آراء — بأن الشيطان هو الذى جبل الإنسان والعالم ، لأنهما من المادة . ويرون كذلك أن الشيطان قد أدخل الإثم فى جسد الإنسان ، فلوث البشرية جميعاً ببؤرة الخطيئة الكبرى . ويصور بعضهم الشيطان على أنه كان صاحب قدر كبير فى السموات قبل سقوطه ، إذ كان كبيراً على الصاروفيم والشاروبيم اللذين يلهجون بمديح الله . ولكنه — الشيطان — قد اغتر بنفسه وطلب إلى الملائكة أن تلهج أيضاً باسمه بنصيب من المديح . فحل عليه غضب الله وأسقط من منزلته ، وفى غضبته عند السقوط إلى الهاوية قام بتجفيف المياه عن المسكونة ثم أوقع آدم فى شرك حواء . ويمثل ميلاد المسيح عندهم إذن الخلاص من رق الجسد

(١٠) "No aias merce de la carn nada de corruptio, mais aias merce de l'esperit pausat en carcer."

وأغلال المادة . وهم يؤمنون بالتناسخ للأرواح ، ولما كان فى الإمكان أن تتناسخ الروح فى نبات أو حيوان للذلك فقد حرّموا قتل الحيوانات ، وإن كانوا قد استثنوا الأسماك والزواحف .

وعلى الرغم من أن غالبية معلوماتنا عن « الأطهار » قد وردت من سجلات أعدائهم من الكاثوليك والمشرفين على محاكم التفتيش ، إلا أن أحداً لم ينكر عمل تلك الجماعات شجاعة أفرادها الفائقة ، وقبولهم الموت حرقاً بالنار دون خوف أو وجل . ويروى عن أحداث سنة ١١٦٣ فى بلدة كولون أن من بين المقدمين للحرق بالنار كانت تلك الفتاة بالغة الفتنة والجمال ، والتى أشفق الجلادون عليها بسبب جمالها الأخاذ ، فجذبوها بعيداً عن المحرقة ونصحوها بإعلان توبتها حتّى تنال العفو ، ثم طلبت الفتاة من الجلادين أن يقربوها من النار — كى تشاهد رماد الضحايا ، ولما أن اقتربت أفلتت من أيديهم وألقت بنفسها فى قلب اللهيب « استعذاباً للاستشهاد مع الإخوة » .

ولقد بالغت سجلات محاكم التفتيش فى إلصاق الاتهامات بتلك الجماعات ، فزعموا أنهم يعبدون الشيطان ، وأنهم يمارسون حرية الجنس ، وأطلقوا عليهم « أتباع لوسيفر » ، أى الشيطان كما خلعوا عليهم اسم « إخوة الروح الحرة » (Freres du Libre Esprit) وقد برزت سيدتان فى زعامة هذه الفرقة فى إيطاليا هما ميلتادى مونتميانو ، وجوليت دى فلورانس .

والواقع أن المدن اللومباردية فى الشمال الإيطالى كانت قد انتعشت منذ منتصف القرن العاشر لاضطلاع أهلها بالتجارة بين الشرق والغرب . وقد كان هذا الرخاء مسيلاً للعاب كل من الإمبراطور والبابا ، فسعى كل منهما للسيطرة عليها . وقد جاهدت هذه المـــدن لإقامة حكومات ديموقراطية جمهورية لتبـــاعد بينها وبين مخالب سيد روما وقيصر ألمانيا . غير أن رجال الدين داخل تلك المدن وقفوا ضد تيار الحرية ، فباعوا ولاءهم تارة للإمبراطور وأخرى للبابا ، كما أنهم طالبوا لأنفسهم بامتيازات خاصة كالإعفاء من الضرائب والاحتفاظ بمحاكم أسقفية خاصة برجال الدين إلى جانب حق محاكمة الهراطقة أمامهم . وراح العلمانيون المتطلعون إلى الحرية والحياة الديمقراطية يدحضون آراء رجال الدين ويفتشون عن الأسانيد التى تسفه مزاعمهم . وفى وسط هذا الصراع الفكرى أخذ الحرفيون والعمال والبسطاء فى تكوين جماعات لهم لا تهتم

بهذا الجدل ، وإنما تسعى لحل مشكلاتها الاجتماعية . . كذلك شهدت المدن الإيطالية قيام حزبين الأول يناصر البابا فى صراعه ضد الإمبراطور الألمانى وعرف بحزب الجويليف (Guelps) ، والثانى يؤازر الأمبراطور الألمانى ضد البابا وعرف باسم الجبليين (Gibbelines) .

وفى وسط هذا الجو المتوتر وصلت أفكار الأطهار ، ووجدت مناخاً طيباً لانتشارها ، إلى حد أننا فى سنة ١١٣٠ نشهد قيام محاكم أسقفية لمطاردة ومحاكمة الهراطقة الجدد الذين عرفوا باسم باترينى (Patereni) ، وهو اسم مشتق من اسم حى الفقراء فى مدينة ميلان . وبعد ذلك وقع صراع بين هذه الجماعة وبين الكاثوليك فى بلدة أورفيتو (Orvieto) ، وازداد نفوذ الأطهار فى الشمال الإيطالى إلى حد أزعج كلا من البابا والإمبراطور ، ولذلك فإنه بعد أن تم الصلح بين الإمبراطور فردريك بربروسا والبابا لوسيوس الثالث سنة ١١٨٤ فى مدينة ڤيرونا ، اتفق الطرفان على ضرورة سحق الهراطقة وذلك بإقامة محاكم للتفتيش الأسقفى ، تملى قراراتها على السلطات العلمانية لمدن الشمال الإيطالى فى هذا الخصوص[١١] .

ورغم أساليب القمع ، كان الأطهار يختفون من مدينة ليظهروا فى مدينة أخرى . كما أن العلمانيين من أهل المدن الإيطالية كانوا متعاطفين مع هذه الجماعات ، خاصة وأن جلاديهم كانوا عملاء للإمبراطور أو البابا . ومع مطلع القرن الثالث عشر انتشرت فرق الأطهار الفقراء فى كل من ميلان وفرارا وڤيرونا ورمينى وفلورنسا وبراتو وبياتسنزا وترڤزو وڤتربو . ورغم قرارات البابوية بالبطش بهؤلاء الأطهار إلى حد إحراقهم بالنار ، إلا أن أفراد هذه الجماعات لم ييأسوا ، وباتت ميلان قلعة لهم وملاذاً لمن يفر إليها من المضطهدين سواء فى فرنسا أو فى ألمانيا .

ويجب التأكيد على أن أطهار ميلان كانوا على درجة عالية من الثقافة ، إذ درج أفراد الجماعة على إرسال أبنائهم النابهين فى بعثات دراسية إلى جامعات باريس حتى يتزودوا بسلاح العلم للدفاع عن معتقداتهم .

وقد نتج عن هذه الحركة مدرسة الأرنولديين من أتباع أرنولد من بريسكا الذى

(١١) Mansi, Sacrorum Conciliorum .Vol. XXII, 477 B.

قاد حملة إصلاح ضد فساد رجال الدين . ولد هذا الرجل فى بداية القرن الثانى عشر فى بلدة بريسكا ، ودرس اللاهوت على يد رجل حر فى باريس هو المفكر بطرس أبيلارد . وقد شرب التلميذ من أستاذه حب الحرية وعلم المنطق والسخط على رجال الدين الفاسدين . وبعد إنهاء دراسته فى باريس ، عاد أرنولد إلى موطنه الأصلى فى شمال إيطاليا ، ورسم قسيساً : وسرعان ما راح يبشر بآراءه الإصلاحية: فأعلن أن امتلاك رجل الدين ، قساً كان أو أسقفاً أو باباً لأملاك خاصة إنما هو إثم خطير. وقد وجد هذا الكلام قبولا طيباً لدى السكان الذين ضجوا من مفاسد الكنيسة وفحش ثرائها . ولذلك فإن تعاليم أرنولد قد طرحت أمام المجمع اللاتيرانى الذى انعقد سنة ١١٣٩، وقرر البابا فيه عزل أرنولد من سلك الكهنوت وطرده إلى خارج ايطاليا . هرب أرنولد إلى باريس ليحتمى بجوار أستاذه أبيلارد . وفى أثناء غيابه ، تغنى الكثيرون فى روما نفسها بتعاليمه ، وثاروا ضد فساد البابوية وصادروا أملاكها . فأصدر البابا قراره بالسجن على أرنولد وأستاذه أبيلارد واحراق كتبهما معاً ، وفى حين أن الأستاذ قد امتثل لحكم البابا ، إلا أن التلميذ قرر ألا يستسلم . ولكن الملك الفرنسى طرد أرنولد من فرنسا ، فسافر إلى المانيا ومنها إلى سويسرا ، ثم عاد إلى موطنه الأصلى . وتجمع أطهار لومبارديا من حوله ، وراح هو يخطب فيهم ، مشبهاً البابا وكرادلته بالفريسيين والكتبة المنافقين ، كما أنه نشر فضائحهم وأشار إلى مجالسهم ومجامعهم على أنها مغارات للصوص وأوكار للثعالب . أما البابا — عند أرنولد — فهو كلب الصيد المفترس الذى يحتفظ بمركزه بالدم والنار ، الذى يملأ خزائنه بعرق الفقراء والجائعين. وهنا اضطر البابا إلى الاستنجاد بخصمه القديم وحليفه اليوم وهو الإمبراطور فردريك بربروسا للقضاء على أرنولد المتمرد . وقام بربروسا بحملة لهذا الغرض سنة ١١٥٥ ، وقبض على أرنولد ، وأمر بشنقه ثم إحراقه ، وأخيراً ذر رماد جسده فى نهر التيبر . وفى مقابل هذه المذبحة الظالمة كافأ البابا هادريان الرابع حليفه بربروســا بأن توجه امبراطوراً مقدساً فى مدينة روما .

أما فى فرنسا ، فقد ضاق الناس بسلوك رجال الدين ورجال الإقطاع جميعاً . كذلك كان رجال الدين يعارضون قيام القوميونات فى المدن التجارية النامية لأن هذا كان يعنى التحرر من قبضة الأسقف والنبيل الإقطاعى . وفى أوائل القرن الثانى عشر

وجد الناس أن الحملات الصليبية التى روجت لها البابوية كانت خداعاً للرأى العام الغربى، وبأنها لم تكن تهدف إلا إلى تحقيق الأطماع الذاتية تحت قناع الدين ، وتحسر القوم على دماء الأبرياء التى أريقت باسم الصليب . وتطلع الناس إلى نبى جديد يمسح غبار الظلام ويحرر الأفراد من الأوصياء والجلادين .

وقد ظهر هذا المصلح فى الجنوب الفرنسى :

بدأت آراء المصلحين بشخص اسمه بطرس من بروى (Pierre de Bruys) الذى كان قساً مخلوعاً بسبب آراءه ، إذ كان ينادى فى الجنوب الفرنسى بعدم جدوى الكنائس وطقوسها وأسرارها وكهانتها وقداساتها ، لأنها جميعاً مسرحية زائفة . أما الصلاة الجنائزية على المـوتى فهى امتهان للحى وللميت ، إذ كيف يمكن للحى أن يساعد الميت ؟ وأما زواج رجال الدين فهو إثم كبير . ولهذا فإن السلطات فى الكنيسة قد حرضت الغوغاء على بطرس هذا ، فهجموا عليه وقتلوه سنة ١١٣٧ . ثم أتى من بعده رجل آخر اسمه هنرى من لوزان ، ونادى بنفس المبادئ التى نادى بها بطرس من قبل ، فطرد من دير كلونى ، وانتهى بنفس الطريقة التى انتهت بها حياة بطرس ، بعد أن نشر آراءه فى لى مانز ، وتور ، وريمز وبوردو .

ولعل أهم ثائر بعد ذلك هو بطرس والدو (Waldo) من أهالى ليون بفرنسا ، الذى كان تاجراً ناجحاً كون ثروة طائلة من الربا . وذات يوم صادف فى الطريق واحداً من الشعراء الجوالين ينشد سيرة القديس الكسيس (Alexis) ذلك النبيل الرومانى الزاهد الذى تخلى عن قصوره وضياعه حباً فى حياة الزهد والفقر ، والذى أخذ يطوف بلاد الغرب ليقتات على التسول والاتضاع[١٢] .

وما أن وصلت أنشودة الشاعر إلى النص القائل : « قم وزع مالك واتبعنى »، حتى أصيب والدو بمس من محبة الزهد وصاحب السيرة ، فقفل (سنة ١١٧٦) عائداً إلى داره ، ليخير زوجته بين رفقته على دروب الفقر وبين ميراث الثروة ، فآثرت الزوجة بطبيعة الحال — المال وعلى التو أخذ والدو فى توزيع كل ما يملك على الفقراء والمعوزين ولم ينس أن يرد لكل من تقاضى منه شيئاً من الربا كل حقوقه . وقضى والدو على كل

(١٢) Chronicon universale anonymi Laudunensis, (edit. Cartellier), Paris, 1909, PP. 20-22.

ما يملك ثم ارتدى مسوح النسك وراح يطرق بوابات الأديار يطلب كسرة من الخبز يقتات عليها . وجن جنون الزوجة ، فهرعت إلى أسقف ليون تشكو إليه حال زوجها ومسلكه . ولما كان والدو ضيئل التعليم ، ولا يعرف اللاتينية ، فقد طلب من أحد أصدقائه أن يترجم له الكتاب المقدس إلى اللغة الفرنسية ، وأخذ يبشر بهذه الترجمة عن سيرة البساطة الأولى للمسيح وتلاميذه . وهرع كثيرون يقلدون والدو « الفقير بالمال ، والغنى بالروح » ، وتنقل أفراد الجماعة يبشرون بما ورد فى الترجمة الفرنسية للإنجيل .

وانزعج أسقف ليون ، لأن بعض ما ورد فى الترجمة كان محرفاً ، فأمر والدو وأتباعه بعدم التبشير ، ولكن الأخير لم يهتم بالأسقف ، فقام الأسقف بطردهم من ليون . وفى سنة ١١٧٩ ظهر وفد منهم أمام البابا اسكندر الثالث يشكون إليه من أسقف ليون ومع أن البابا سمح لهم بحياة الزهد التى اختاروها طواعية ، إلا أنه أصر على عدم قيامهم بالتبشير باللغة الفرنسية . ولم يفت البابا أن يحيل الوفد إلى أسقف إنجليزى هو والتر ماب (Walter Map) لكى يعرضهم للسخرية ويحكم عليهم بالجهل . وغضب أتباع والدو خاصة بعد أن قرر مجمع ڤيرونا تجريمهم تحت اسم « هراطقة والدو الأطهار » . بعد هذا اتخذت الجماعة مركزاً لنشاطها فى مدينة ألبى (Albi) بالجنوب الفرنسى ، ومنها اشتقت الجماعة اسمها « الألبجنزيين » (Albigensos) ، وكان أول من أطلق عليهم هذا الاسم المعاصر بطرس دى فوه دى سرناى Pline de Vaux de Cernay فى مؤلفه بعنوان « تاريخ الألبجنزيين » Historie albigeoise . وأتباع والدو من الأطهار درجتـــان : الأولى تعـــرف بالكاملين (Perfecti) وهم الذين يعيشون حياة الزهد والطهر الكامل ، وهم يشتهون الموت ولا يخشون الاضطهاد وهم على اعتقاد بأنه عقب وفاتهم مباشرة تتصل أرواحهم بالطهر الأعلى فى ملكوت السموات[١٣] . أما الطبقة الثانية فهى تتألف من « المصدقين » (Credentes) وهم على رجاء الوصول إلى درجة الكمال بفعل التناسخ والتطهر مرحلة بعد أخرى . وقيل أنهم يضعون كل ما يملكون فى شركة للجماعة لكل نصيب يساوى نصيب الآخر . والواقع

---

(١٣) Dataillis, Ch. Petit, La monarchie feodale en France et en Anglctve, Paris, 1933, PP. 308 ff.

أن الأطهار الألبجنزيين عرفوا بالتمسك الشديد بما ورد فى الأناجيل فحفظوها عن ظهر قلب . وهم متواضعون فى الحديث ، مجلسهم بسيط ، ولا يكذبون أو يحلفون، ولا يقبلون العمل بالتجارة خوفاً من الربح الحرام ، ومبدأهم الدائب : « بعرق جبينك تأكل خبزك » . واشتهر عنهم العمل بصناعة الأحذية وإصلاحها وهم لا يكتنزون مالا ، وشعارهم أيضاً : « خبزنا كفافنا أعطنا اليوم » : وهم لا يفرطون فى الطعام ، ولا يترددون على الحانات أو المراقص .. وهم كثيرو المطالعة والدرس والصلاة ، كما وأنهم يتحاشون استخدام الألفاظ السوقية ومجالس النمامين . ويتم لقاؤهم فى مغارب اليوم عند أحد الإخوة للدرس والصلاة، وإن أبدى أحدهم بلادة فى فهم الدرس، شد المعلم من أزره بقوله : « تعلم فقط كلمة واحدة كل يوم ، وبذلك تتعلم ٣٦٠ كلمة على مدار العام ، ويا لذلك من بركة لنا جميعاً ولك » .

ولقد راجت أفكار والدو بوجه خاص فى الجنوب الفرنسى — بلاد « لانج دوك » (Langue d'oc) التى يفصلها نهرا اللوار عن بلاد « لانج دوى (Langue d'oil) . والحق أن بلاد الجنوب الفرنسى كانت فى القرنين الحادى والثانى عشر تتمتع بالرخاء وبمناخ الحرية الفكرية ، فانتعشت الآداب فى مدائن ناربون ، تولوز ، ألبى ، بيزييه وكركاسون . كذلك كان للأثر العربى الوافد من أسبانيا بالغ التأثير على العقلية الفرنسية فى تلك النواحى . وكان كونتيات البلاد نبلاء نابهين ومستنيرين ، فشجعوا الآداب وفتحوا قلاعهم للشعراء والمغنين والمنشدين . ومن ثم ظهرت فى الجنوب الفرنسى نزعات للتحرر والانعتاق من تحرشات الكنيسة والملكية الفاسدة . وكان أتباع والدو موضع الاحترام فى الجنوب الفرنسى ، نظراً لحسن سيرتهم ، وطلاوة لسانهم إلى حد أن الناس أطلقوا عليهم « القوم الطيبين » (bos homes) .

وفى سنة ١٢٠٢ على وجه التحديد تم لقاء بين أتباع والدو وبين الفئات الساخطة فى الشمال الإيطالى ، والذين عرفوا حينئذ باسم « المتضعين » (Humiliati) ، ومن هذه الجماعة الأخيرة تعلم الوالديون أنه لا يليق برجل الدين الآثم أن يقدم الموعظة أو يمارس الأسرار الدينيـــة ، لأن فاقد الطهر لا يعطى طهراً . ونادوا بأنه ليس هنالك ثمة ما يمنع اعتراف المرء لرجل علمانى صالح ، على أنه

فى سنة ١٢١٨ تم لقاء آخر بين الجماعتين ، ونظراً لتشدد أتباع والدو فى ضرورة « التبتل » ، وقع خلاف بين الفئتين وافترقتا عند بلدة برغامو . وتطرف قوم من أتباع والدو فى الزهد فأحجموا عن العمل ، مكتفين بما يمن به عليهم الكرام من صدقات . وهؤلاء يعتقدون أيضاً أنه لا وجود لمطهر ولا لجهنم ، ولا قيامة للجسد ، إذ كيف تكون قيامة لفساد مادى ؟

وفى نفس الوقت الذى ذاعت فيه آراء والدو ، ظهرت تعاليم زاهد آخر هو يواكيم من كلابريا . كان هذا الرجل يحيا حياة الزهد والطهارة ، بعد أن أمضى سنيناً طوالا فى بلاطات أمراء أوربا . وقد دخل دير سيتوه (Citeaux) ، ثم اختير مقدماً لبيت كوراتزو (Corazzo) فى صقلية سنة ١١٧٧ .

وفى سنة ١١٨٤ سمح له البابا لوسيوس الثالث بكتابة تعليق عن الكتاب المقدس، وفى سنة ١١٩١ هجر يواكيم ديره ونزل فى بلدة فلورا (Flora) حيث أقام بيتاً للتوحيد وللمتوحدين (Solitaires) ، وذلك بدون الرجوع إلى المسئولين فى رئاسة ديره الأصلى ، وقد وافق له البابا على ذلك فى سنة ١١٩٥ .

كان يواكم يؤمن بأن الوعظ والتبشير والإرشاد لن يجدى مع مظالم المجتمع شيئاً ، فلجأ إلى التأمل والتوحد ليشبع بمحبة الله . وله نظرية فى الثالوث ، وتفسير لمسار التاريخ : فالعهد القديم . عنده — هو عهد الله « الأب » ، والعهد الجديد عهد المسيح « الإبن » ، والعهد المنتظر هو عهد الروح القدس . ولقد انتهى العهد القديم ومضى العهد الجديد ، وبقى أن يحل عهد الروح القدس ، الذى أطل يواكيم على أعتابه نبيًّا وداعيًّا ، وهو يستقى تفسيراته من الرموز الواردة بين أسطر الرؤى الإنجيلية . لقد ولى عهد المخافة والناموس ، وبقى أن تعمل تباشير عهد المحبة الخالصة لأجل المحبة (Caritas caritatis) . ولكل عهد من العهود الثلاثة مثالياته ، فالمثال الأعلى فى العهد القديم هو شركة الزيجه ، وفى الجديد حياة الرهبنة ، أما الإنموذج الحسن الأحسن فهو من معطيات عهد الروح القدس ، ألا وهو التأمل والتوحد[١٤] .

ومن حسن المصادفة أن آراء يواكيم قد تحققت أثناء حياته ، فلقد نشطت جماعات الزهاد من الرهبان الأصفار (Friars minor) من فرنسيسكان ودومينكان وجزويت

(١٤) Huhges, P., A History of the Church, London, 1956, Vol. II, PP. 334 ff.

وهم جميعاً أداة للكنيسة الرومانية تبشر بالزهد والبساطة ، وواضح أن الكنيسة الرومانية تحاول من خلال هذه الجماعات محاربة « الأطهار » بنفس سلاحهم[١٥] .

---

(١٥) القديس فرانسيس اسمه أصلا جان وهومن بلدة أسيسى فى تلال أومبريا الإيطالية . كان والده من أغنى تجار الأقمشة . ولقد أطلق عليه كنية « فرانسيسكو » نظراً لولعه الشديد بالآداب والأشعار الفرنسية . ويروى أن الشاب وهو يمارس تجارة والده فى متجره ، قصده شحاذ يطلب الصدقة ، ولكن فرانسيس كان منشغلا بصفقة مع أحد التجار فأهمل طلب الشحاذ . وما أن انتهى من الصفقة ، حتى كان الشحاذ قد اختفى خجلا من إلحاحه. فقفز فرانسيس من وراء المتجر تاركاً كل شىء يفتش عن الشحاذ فى طرقات البلدة حتى عثر عليه فأعطاه مالا وفيراً . وأقسم أن يهجر حياة الترف والتجارة وأن يعيش عيشة الزهد والشحاذين سنة (١٢٠٨). ولما انزعج والده من هذا التغير المفاجىء فى مسعى ابنه واحتكم إلى كبار رجال الدين لعلهم يصلحوا من حال ابنه ، صرخ الفتى ، وقد مزق ثيابه قائلا « لست من هذا العالم ، وإنى لم أعد أعرف إلا أبانا الذى فى السموات وليس أبانا الذى فى الأرض پترو برناردونى» . وكان شعار فرانسيس أيضاً «الرحمة والمحبة لأجل المحبة والرحمة» . وفى سنة ١٢١٠ قابل فرانسيس البابا أنوسنت الثالث ليوافق له على تأسيس جماعته ، ولكن البابا فى بداية الأمر خشى أن يكون فرانسيس زعيماً لفرقة مهرطقة جديدة لأن تعاليمه عن الزهد والمحبة كانت شبيهة بتعاليم « الأطهار» من أتباع والدو فى الجنوب الفرنسى . وفى النهاية وافق له على إنشاء جماعته . وتمركزت الجماعات فى أكواخ فقيرة حول منطقة پورتيوكيولا ، ومنها انطلقوا يبشرون فى إرساليات فى بلدان العالم (سنة ١٢١٧) . وقد جاء فرانسيس فى حملة لويس التاسع على دمياط ثم زار فلسطين بعد ذلك . والقديس فرانسيس يدعو إلى التسامح والمحبة ، ويحرم على أفراده الملكية الخاصة ، وهو لا يؤمن بأسلحة الحرمان والتعذيب .

ولما أن عاد فرانسيس من فلسطين وجد جماعته قد استقرت فى دار فاخرة تنم عن العيش المريح والرفاهية فطردهم منها ، وفى سنة ١٢٢٤ اعتزل رئاسة الجماعة . وبعد اعتزاله لجأت الجماعة إلى بحبوحة العيش ووضعت نفسها تحت سلطان البابا .

وفى سنة ١٢٥٧ انتخبت الجماعة رئيساً لها هو بونا فنتورا ، وهو الذى كتب سيرة القديس فرانسيس .

وفى سنة ١٣٢٢ ضاقت البابوية ذرعاً بالزهاد المتمسكين بتقاليد مؤسس الجماعة ، لأنهم هاجموا الفساد البابوى . ولذلك فإن محاكم التفتيش أوقعت بهم الاضطهاد وأحرقت بعضهم كهراطقة .

أما الدومنيكان فهم أتباع سان دومنيك الذى ولد فى قشتالة بأسبانيا ودخل سلك الكهنوت . وكان دومنيك ضالعاً فى اللاهوت وفى علم الكلام ، وقد دخل فى مجادلات حامية مع الألبجنزيين أبدى فيها علماً غزيراً ومقدرة كلامية هائلة . وقد شارك دومنيك فى المجمع اللاتيرانى الرابع سنة ١٢١٥ ، وهنالك وافق له البابا أنوسنت الثالث على أن يؤسس له جماعة تحت لواء جماعة أغسطين القائمة بالفعل . وقد أطلق دومنيك على جماعته . « الرهبان السود » تميزاً لهم عن « الرهبان البيض » من الفرنسيسكان . فى حين اهتم الفرنسيسكان بالعمل اليدوى والعناية بالمرضى ، إنصب اهتمام الدومنيكان على التبشير والتعليم . ولذلك فقد اقترن اسمهم بإنشاء المدارس وكليات الطب واللاهوت .

أما الجزويت فهم جماعة دون إنيجو لوبز ريكالدى أى لويولا (أجناشيوس لويولا) الأسبانى الأصل =

كما تنبأ يواكيم بأن كل عهد من العهود ينتهى بعلامات وكروب ، كما أن لكل عهد طقوساً خاصة تنتهى بانتهائه . وعلى هذا فإن « القداسات » الكنسية سوف تختفى مثلما اختفى من قبل « حمل الفصح » . هذا ويرى الرجل أن فداء الإنسانية من السقطة الكبرى لم يكتمل بعد ، فالمسيح الذى ظهر فى بيت لحم لم يكن إلا رمزاً للمسيح الذى سوف يأتى . كذلك لا بد وللكنيسة من أن تنتهى هى أيضاً ليحل محلها « بيت المحبة والرحمة » والتأمل فى المحبة الإلهية .

ولقد قربت الساعة ، ودق ناقوس « الإنجيل الجديد » ، وهو ليس إنجيلا مغايراً بمعنى المغايرة ، وإنما هو فهم لأسرار ورؤى الإنجيل الحقيقى . ولقد أدان المجمع اللاتيرانى الرابع على عهد إنورسنت الثالث (سنة ١٢١٥) آراء يواكيم[١٦] .

أما عن « الأطهار » (Cathari) فى بلاد فلاندرز ، فقد جاء ظهورهم متأخراً عن أقرانهم فى لومبارديا والجنوب الفرنسى . ولقد تمتعت فلاندرز بقسط من التسامح مع الفكر المخالف فى بداية الأمر . وكان المجتمع مؤلفاً من طبقتين : الأولى هى طبقة النبلاء وكبار أصحاب المصانع ، والثانية هى طبقة العمال الكادحين من « النساجين » (Textores) . ولقد اقترن اسم النساجين فى فلاندرز بفرقة « الأطهار » . وقد فرق أطهار فلاندرز – مثل غيرهم من أطهار أوربا – بين إله العهد القديم وإله العهد الجديد : فالأول هو الله الناموس والآخر هو إله السماحة والمحبة – الرب الطيب – الذى لا يقبلون سواه . ورب العهد الجديد ليس فى حاجة إلى كهانة ولا إلى معمار كنائس ، وإنما هو رب القلوب النقية والنفوس المنكسرة ، وهو معين السواعد العاملة لكسب أجرها اليومى . وهم لا يحلفون ولا يكذبون ولا يقرون الحرب ، ومثلهم

= (ولد سنة ١٤٩١) . وبعد أن أصيب لويولا بالشلل فى إحدى المعارك الحربية ، نذر نفسه للخدمة الدينية ، وقد قام برحلة إلى القدس سنة ١٥٢٣ ، وبعدها عاد إلى أسبانيا . وفى سنة ١٥٢٨ سافر إلى باريس ، حيث صادق بطرس فابر ، وفرانسيسكو اكزافيير ، ولاياجولينز ، وكون الأربعة جماعة رهبانية تدعو إلى حياة الطهارة والزهد ، تحت تصرف البابوية . وفى سنة ١٥٤٠ أذن لهم البابا بولس الثالث بممارسة نشاطهم الدينى تحت إمرة أجناشيوس ، وعرفوا باسم « رفاق يسوع » ، ومن ثم الجزويت . وانصب همهم على إقامة المدارس والكليات ونشر الثقافة والتعليم ، كما أرسلوا الإرساليات إلى أنحاء كثيرة وراء البحار .

(١٦) De errore Abbatis Ioachim - See Appendix.

الأعلى هو سيرة الرسل الأطهار من صيادى الجليل البسطاء . وتنسب الطائفة الأولى من أطهار فلاندرز إلى لامبرت لى بج (Lambert le Begue) أى « المتلعثم » ، وهو قس من بلدة لييج (Liége) ، قام فى سنة ١١٨٠ بشن حملة ضد مفاسد الكنيسة وتحرشاتها بأمور العلمانيين . فقام الأساقفة بالقبض عليه ثم قتلوه . وقيل أنه قبل وفاته ، جمع جيشاً من فضليات النسوة الطاهرات وأنزلهن فى دار للطهارة ، وعرفت الجماعة باسم « بجوان » (Beguin) ، وهى كلمة مشتقة من لفظة « بج » (Beg) السكسونية ومعناها « تنظيم نسائى يحيا حياة الزهد والنقاوة » . ويرى البعض أن حياة الزهد والطهر عند نساء فلاندرز يرجع إلى نقص واضح فى أعداد الرجال بسبب الأعداد الكثيرة التى هلكت فى الحملات الصليبية من فلاندرز بين أعوام ١١٣٨ ، ١٢٠٤ .

وأهم واجبات هذه الطائفة كانت القيام بالتمريض واستضافة الغرباء والمعوذين . وهن يعتقدن أن الخضوع لسلطة البشر إثم ، لأن من تحل به روح الله لا يخضع لسلطان عبيد الله ، ولا للكنيسة[١٧] .

وسرعان ما حذا رجال فلاندرز حذو نساءها ، فأقاموا بيوتات مثيلة عرفت باسم « بجرديان » (Beghardian) ، عاش أهلها على التبتل وعلى العمل بسواعدهم . غير أن نفراً منهم ملوا هذه الحياة ، فهجروا البيت وهاموا على وجوههم فى أصقاع البلدان يبشرون بالزهد وحياة الطهر ، وانتشرت تعاليمهم فى وادى الراين حتى تمركزوا فى القرن الثالث عشر فى بلدان كولون وميتز وستراسبورج ومينز .

ويتصل بهذه الجماعات طائفة أخرى ظهرت فى بلدة أنتورب (Antwerb) ، وعرفت باسم « لولارد » (Lollards) (سنة ١٣٠٠) ، وقد اهتمت هذه الفئة بالعناية بالمرضى والمجانين ودفن الفقراء . وكانوا يحصلون على المال اللازم لأداء خدماتهم المجانية من التبرعات ومن عرق جبينهم أو من الشحاذة والتسول . وينسب هؤلاء إلى زعيمهم لولارد والتر (Lollard Walter) ، وقد قبض عليه سنة ١٣٢٧ وعرض لعذاب شديد ، ولكن عزمه لم يهتز . ثم أحرق الرجل دون أن يفشى بسر من أسرار رفاقه .

وفى بداية القرن الثالث عشر ظهرت جماعة من « الأطهار » فى باريس عرفت

(١٧) Errores Beguardarum et Beguinarum. See Appendix.

باسم « إخوة الروح الحرة » (Freres du libre Esprit) وانتقل فكرها إلى إيطاليا بزعامة سيدتين هما ميليتيادى مونتميانو ، وجوليت دى فلورانس . ولقد وجدت هذه الجماعة ترحيباً خاصًّا بين أبناء الشعب الألمانى ، وذلك على يد زعيم يدعى أورتليب من ستراسبورج (Ortlieb of Strassburg) . ويعتقد هؤلاء « الإخوة » أن كل إنسان يضم بين جنباته قبساً روحيًّا طاهراً من عند الله ، وعلى ذلك فإن قول الكنيسة الكاثوليكية بأن الإنسان قد ولد بالإثم والخطيئة قول مردود . وعليه فإنهم لا يرون ضرورة فى قيام الكنائس ولا القسيسين ، لأنه لا وساطة بين الخالق وعبده . ويرون أنه بعد الموت تصعد الروح إلى باريها ، دون أن تمر على مطهر أو ما شاكله ، لأن الروح نقية فى الأصل، وهم يعتقدون أن كل ما يدخل الفم فهو طاهر ، والإخوة على وجه الخصوص لا يجدون أية غضاضة أو إثم فيما تتناوله اليد أو تبصره العين أو تسمع به الأذن[١٨] . ولعل هذه التعاليم « التحررية » قد شجعت « الإخوة » على أن يستحلوا كل شىء فمارسوا حرية الحب وتدنسوا فى فجور شديد ، كما تزعم سجلات أعدائهم من الكاثوليك .

أمام هذه الآراء السابقة الذكر ، التى تهدد كيان الكنيسة الرومانية من أساسها ، بل وتلغى مبرر وجودها أصلا ، كان طبيعيًّا — أن تنزعج الدوائر الكنسية فى غرب أوربا ، فهرعت منقضة تستخدم أسلحتها التقليدية من لعنة وقطع وحرمان وحملات صليبية ومحاكم تفتيش إرهابية ضد هؤلاء « الثوار » الذين دمغتهم بالهرطقة لتبرر ضربهم بالحديد والنار .

ولعل المؤرخ الموضوعى لا يجد غضاضة فى مسلك البابوية والكنيسة فى الدفاع عن كيانها وعقيدتها لو أنها أعطت المثل الطيب فى سلوكها الذاتى ، ولكن واقع الأمر يشير إلى عكس ذلك تماماً . لقد وصلت البابوية إلى الدرك الأدنى فى وحل الرشوة

---

(١٨) يعتمد أورتليب على رسائل القديس بولس فى الآتى: « إذ لا شىء من الدينونة الآن على الذين هم فى المسيح يسوع، السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح . لأن ناموس روح الحياة فى المسيح قد أعتقنى من ناموس الخطيئة والموت ! » (إلى أهل رومية ٨ : ١ ، ٢) وأيضاً فى رسالته إلى أهل غلاطية (٥ ، ١٨) « ولكن إذا انقدتم بالروح فلستم تحت الناموس ! » كذلك رسالته إلى تيموثاوس (١ ، ١-٩) « عالماً هذا : أن الناموس لم يوضع للبار بل للأثمة والمتمردين » .

والدعة والفجور . وبات الفاتيكان بيت سوء . ويكفى أن نشير فقط إلى طرف من سيرة واحد من البابوات هو اسكندر السادس بورجيا الذى تولى العرش البابوى سنة ١٤٩٢ . كان الكاردينال رودريجو بورجيا من أصل أسبانى ، عينه عمه البابا كالكستوس (١٤٥٥ — ١٤٥٨) كاردينالا ، وصارت له الكلمة العليا فى روما . ويعترف أحد المعاصرين صراحة بأنه بوصول رودريجو إلى قلب الكيوريا بات تزييف كل شىء فى متناول كل يد . وهذا الشاهد المعاصر هو جان دى ڤولترا (Jean de Volterra) الذى صاح فى قلب الفاتيكان أمام الحاضرين قائلا : « أيها السادة ، إن كان أحدكم يبحث عن تنفيذ مطلب غال أو غير عادل أو مزيف فإن الوقت قد حان تماماً ، لأن البابا الحالى يعطى كل شىء لمن يدفع »[١٩] .

بعد وفاة البابا كالكستوس ، باع الكاردينال رودريجو بورجيا صوته بمال دسم إلى البابا بيوس الثانى ، ولم يرغب بسبب حداثة سنة أن يتقدم لاعتلاء العرش البابوى . وفعل نفس الشىء مع البابا أنوسنت الثامن بعد وفاة بيوس الثانى . وأخيراً فى سنة ١٤٩٢ كانت الثمرة قد نضجت ، واعتلى بورجيا العرش البابوى باسم البابا اسكندر السادس .

عرف عن بورجيا أنه لم يكن يطيق حضور صلوات القداسات ، وإن اضطر إلى الحضور فإن الصلاة تختصر للغاية فلا تتعدى نصف الساعة[٢٠] .

وكان بورجيا مغرماً بالنساء ، وكان يحيط نفسه بالراقصات ، ويروى أنه لم يكن لينام فى فراشه بمفرده[٢١] .

ولبورجيا أبناء لقطاء كثيرون ، خاصة من السيدة ڤانوتزا (Vannozza) التى رزق منها بكل من قيصر ، وجان ، ولوكريس ، وجوفرى . كما رزق من أخرى بكل من جرومين ، وإيزابيل ، وبيارلويس ، ولورا . ومن خليلاته أيضاً السيدة جوليا فرانيزى

---

(١٩) Pie II Commentarii, in "Atti Acc. Lincef. Memoria Clas. Sc. mor. Stor e filios" 1882 - 1883, P. 1759 : "Amici si quis vestrum resinjustus et inhonestas quaerit, nunc tempus adest, nam Pontifex omnibus omnia concedit".

(٢٠) "Vix dutrvit ad mediam horam".

(٢١) Infessura, Diaria rerum romanorum, "Ist - stor. Ital.", 1890, P. 287 - 288. "non solus in lecto dormivaret".

(Julie Franese) . وقد أورد المعاصر إنفسورا (Infessura) فضائح كثيرة تتصل بالبابا اسكندر السادس وزوجه غير الشرعية جوليا وابنته لوكريس ، خاصة يوم زواج ابنته من جان سفورزا (Sforza) [٢٢] .

وكان بورجيا لا يتورع عن مسلك الفجور فى العلن ، بل فى وجود بناته وأفراد حاشيته الفاسدة ، ولذا فقد أشارت إليه بعض الأصابع بالاعتداء على المحارم [٢٣] .

واشتهر عن بورجيا — مثلما قيل عن سلفه سكستوس — الولع بالغلمان ؛ مما أعاد إلى الأذهان غرام الإمبراطور هارديان بغلامه أنتينوس ، وذلك على الطريقة الإغريقية القديمة [٢٤] .

وفى السيمونية وصل الأمر بالبابا بورجيا إلى بيع منصب الكرادلة بالمال ، وقد بلغت الرشوة فى هذا الصعيد مبلغ مليون ومائتى ألف مارك من الذهب [٢٥] . ولقد حفر المعاصرون أغنية ساخرة على جذع شجرة فى بلدة باسكوينو (Pasquino) تشهر بنزوات وسيمونية اسكندر السادس ، وبجره روما إلى درك الجحيم الأسفل ، مثلما فعل من قبل تاركوينوس ونيرون [٢٦] .

وقد اعتاد بورجيا على الاستيلاء على أملاك وأموال الأساقفة الأغنياء عقب وفاتهم ، ويسوق المؤرخ بيركارد أمثلة كثيرة على ذلك ، أبرزها حالة الأسقف إجرد دويركوب (Egerd Duerkop) [٢٧] .

---

(٢٢) Op. cit., loc. cit.

(٢٣) See Portigliotti, G., Les Borgia, (traduit de l'Italien par Fernand Hayward), Paris, 1927, PP. 65 - 69.

(٢٤) Infessura, op. cit., loc. cit. : "puerorum amator".

(٢٥) Johannis Burckardi, Liber Notatrum ab anno M. CCCC.L. XXXIII usque ad annum MDVI (collection "Rev. Ital. Script"). Citta di castello,II, P. 242 - 243.

(٢٦) Portigliotti, op. cit., P. 70 :"Vendit Alexnder, claves altaria, Christum Vendere jure potest, emerat ipse prius Devitio in vitium, de flamma crescit in ignem Roma sub hispano deperit imperio Sextus Tarquinius, Sextus Nero, sextus et iste semper sub sextis perdita Roma fuit".

(٢٧) Burckard, op. cit., II, p. 173 - 174 : " ... ci secretum ad aurem commisit et de pecuniis et nescio quibus aliis perquireret et ipsi papae repertas consignaret.."

ولم يكن بورجيا يتورع عن دس السم لمن يريد التخلص منه من معارفه لكى يرث أملاكه ، ولم يسلم من هذا الجرم علمانى أو رجل دين فى روما وذاع عن سم بورجيا – الذى تخصص فى إعداده صيادلة مرموقون فى روما اسم خاص هو « كانتاريللا » (Cantarella) .

ولقد ظل بورجيا متربعاً على العرش البابوى حتى ناهز الثانية والسبعين من العمر . ورغم تقدمه فى السن ، ظل موفور الصحة والعافية ، كما يشهد بذلك سفير البندقية فى روما – جستنيان – الذى قال بأن البابا كان يبدو كشاب فى سن الثلاثين فقط .

ويروى أن اسكندر السادس (بورجيا) قد أعد هو وابنه قيصر بورجيا السم للتخلص من الكاردينال هادريان ، ولكن القدر تدخل إذ شرب الكاردينال – خطأ – من الكأس السليم ، وتجرع البابا وابنه من الكئوس المسمومة ، فكانت نهاية البابا[٢٨] . واسكندر السادس بعد هذا هو المسئول عن ذبح المصلح الفلورنسى سافونا رولا ، كما سيأتى فيما بعد .

على هذه الشاكلة الذميمة تردى الفاتيكان وسيده وكرادلته ، ولذلك فإن صيحة الإصلاح أخذت تعلو فى عنان السماء تطالب بالتغيير وتبشر بفجر جديد . ولم تفلح أساليب الارهاب والقمع فى ظل محاكم التفتيش فى تعطيل مسار التاريخ والانعتاق من أغلال الكنيسة الرومانية .

---

(٢٨) Portigliotti, op. cit., P. 124 - 125.

الباب الثاني

قيام محاكم التفتيش



قيام محاكم التفتيش

محاكم التفتيش (Inquisition) اصطلاح مشتق من كلمة لاتينية هى (inquirere) بمعنى « يبحث – يتقصى – يفتش » .

ولقد أسسها البابا لوسيوس الثالث ثم أنوسنت الثالث ، وخاصة فى المجمع اللاتيرانى الرابع سنة ١٢١٥ ، واستمرت فى قمع الفكر المخالف بالحديد والنار والإرهاب عدة قرون .

وفى أسبانيا بدأت محاكم التفتيش نشاطها سنة ١٤٧٨ بإيعاز من الملكين فردناند وإيزابيللا ، وبتأييد من البابا سكستوس الرابع .

وفى البداية كان اللاهوتيون يرون محاربة الفكر الدينى المخالف – أو إن شئت المهرطقة – بأسلوب المجادلة والمحاجة بدلا من اللجوء إلى العنف : من قبيل ذلك دعوة القديس برنارد دى كليرڤوه (القرن ١٢) ، بأن السلاح لن يجدى ، وعلينا بسلاح الجدل »[١]. ولقد أقر نفس المنهج الأب وازو Wazon أسقف لييج[٢]. كما أن المجامع الكنسية التى انعقدت فى ريمز (سنة ١٠٤٩) ، وفى تولوز (سنة ١٠٥٦) قررت إدانة المخالفين للعقيدة الكاثوليكية بلعنة الحرمان من جسد الكنيسة فقط ، وذلك لوقاية قطيع المؤمنين من التلوث بالآراء المهرطقة[٣].

وقد استبعد البابا اسكندر الثانى فكرة سفك دم أى فرد بسبب آراءه المخالفة ، لأن « سفك الدم أمر لا تقره قوانين السماء ولا القوانين الوضعية »[٤].

إلا أنه فى سنة ١١٦٢ كتب الملك الفرنسى لويس السابع إلى البابا اسكندر الثالث

---

(١) Bernard de Clairvaux, Cant. Serm. LXIV:"Capiantur non armis, sed argumentis".

(٢) Monumenta Germaniae Historia Sciriptores, Vol. VII, P. 227.

(٣) Mansi, Sacrorum Conciliorum Amplissima et Collectio, Vol. XIX, Cols. 737, 849.

(٤) Ibid., Vol. XIX, Col. 980 (Lettre à l'archeveque de Narbonne) : "... quod leges tam ecclesiasticae quam saeculares effusionem humani sanguinis prohibent.."

بأن المانويين فى فلاندرز باتوا يستوجبون اهتماماً خاصًّا ، محذراً السيد البابا « لأن فكر المانوية كالوباء يجب استئصاله قبل أن يستشرى شره . وإنى أهيب بك — إشفاقاً على العقيدة والإيمان — أن تخولوا صلاحيات كاملة لكبير أساقفة ريمز لمعالجة الموقف فى حزم بالغ لتحطيم من يتمردون ضد الله — فى قسوة بالغة . وإن تهاونتم فى الأمر ، فإن هذا سوف يؤدى إلى ضرر بالغ يلحق بالكنيسة ، قد لا تحمد عواقبه »[٥] .

وبالفعل تحرك البابا اسكندر الثالث ، وعقد مجمعاً فى تورسنة ١١٦٣ برئاسته شخصيًّا ، وقرر المجتمعون تكليف الأساقفة والأمراء الإقطاعيين باتخاذ أقصى درجات الحيطة والشدة فى مطاردة المانويين الذين انتشروا كالأخطبوط فى أراضى غسقونيا وأصقاع أخرى فى الغرب[٦] .

وعندما انعقد مجمع اللاتيران سنة ١١٧٩ برئاسة البابا اسكندر الثالث ، طلب إلى السلطات العلمانية معاقبة المانويين والبولصيين والألبجنزيين ؛ لأنهم باتوا يروجون لآرائهم المهرطقة جهاراً . كما أصدر المجمع ضد هذه الجماعات قراراً باللعنة (Anathema) ، واستنفر المجمع[٧] السلطات العلمانية لحمل السلاح وشن حرب « صليبية » ضد شرورهم .

وفى مجمع ڤيرونا المنعقد سنة ١١٨٤ برئاسة البابا لوسيوس الثالث ، وحضور كبار الأساقفة والأساقفة ، وحضور الإمبراطور الرومانى المقدس فردريك بربروسه[٨] ، تقرر مطاردة « الأطهار والمتضعين » وفقراء ليون من علمانيين وإكليروس على حد سواء : على أن يسلم المهرطقون للسلطات العلمانية للقصاص . وكلف كبار رجال الدين بالتفتيش عن أفراد هذه الجماعات بمساعدة « العيون » للقبض عليهم . وكل من يتهاون أو يقصر فى هذا الأمر ، يعرض نفسه لقرار الحرمان لذاته ، والقطع لأملاكه .

(٥) Martene, Amplissima Collectio, t. II, P. 683 - 684.

(٦) Mansi, op. cit., Vol. XXI, Col. 1178.

(٧) Enchiridion Symbolorum, P. 175. See Appendix.

(٨) "Frederici illustris Romanorum imp eratoris, semper Augusti, praesentia pariter et vigore suffulti".

على أنه ابتداء من سنة ١١٧٨ ، لم يقتنع البابا اسكندر الثالث بجهود الأساقفة فى أبروشياتهم فى تعقب الهراطقة ، فقرر تعيين كاردينال دى سانت كريسوجونى (Cardinal de Saint Chrysogone) قاصداً رسولياً على أرض اللانج دوك (الجنوب الفرنسى) ، وخوله صلاحيات طائلة لقمع الهرطقة فى تلك الأنحاء ، على أن يعاونه فى هذا الأمر جماعة من رهبان السسترشيان[٩] .

ولما جاء البابا أنوسنت الثالث خول هذه الصلاحيات (سنة ١١٩٨) إلى الآباء السسترشيان فى تولوز ، بمعنى أنه عينهم قاصدين رسوليين من قبل الكرسى البابوى .

وفى سنة ١٢٣١ قرر البابا جريجورى التاسع تعيين الرهبان الدومنيكان لمحاربة الهرطقة « لأنهم عمال جادون . . . على أن هذا لا يعنى أننا نحرم الأساقفة من حق التفتيش عن الهراطقة ، ولكننا نعلم أن الأعباء الأخرى الملقاة على عواتقهم لا تسمح لهم حتى بالتنفس »[١٠] .

إن هذا التطور يشير فى وضوح إلى أن البابوية قد وضعت محاكم التفتيش كلية تحت سيطرتها المباشرة ، دون تدخل من الأساقفة المحليين ، مستعينة فى هذا بأداتها الطيعة من رهبان الفرنسيسكان والدومنيكان .

وفى عهد الملك الفرنسى لويس التاسع ، اهتمت والدته الملكة بلانش القشتالية بمهمة قمع الهراطقة فى فرنسا (سنة ١٢٢٨) . وأعلنت بلانش أنها سوف تتعقب الهراطقة فى كل أرجاء البلاد ، بشرط أن تشير السلطات الكنسية إلى أوكارهم . وكان طبيعياً أن يتحمس ابنها لويس التاسع للمشروع ، فوكل الأمر لرجل جبار هو روبرت لى بوجر (Robert le Bougre) ، المفتش الكنسى العام على الشمال

---

(٩) Vaissette, Histoire generale du Languedoc, t. VI, P. 79.

(١٠) Ripoll. t. I, P. 47; Dictionnaire de Theologie Catholique, t. VIII Col. 2019 :
"Nos considerantes quod vos diversis occupationum turbinibus agitati vix valetis inter inundantimu sollicitudinum angustias respirare, ac per hoc dignum ducentes et onera vestra cum aliis dividantur, dictos Fratres praedicatores contra haereticos in regnum Franciae et circumjaçentes provincias duximus destinandos, mandantes quatenus ipsos benigne recipientes et honeste tractantes in hiis et aliis consilium, auxilium et favorem taliter impendatis, quod ipsi commisum sibi officium exsequi valeant.

الفرنسى ، الذى كان هرطيقاً ثم استقام أمره ، وأخذ يمارس أساليب القمع البشعة باسم الملكية الفرنسية والبابوية معاً(١١) .

وقد تقرر — بناء على ذلك — أن تقبض السلطات الكنسية للتفتيش على المتهم وتحاكمه ، وإن تمت إدانته يسلم إلى السلطات الزمنية « لإحراقه بالنار »(١٢) . ثم امتدت صلاحيات المفتش العام على الشمال الفرنسى وهو روبرت لى بوجر سالف الذكر — لتشمل أيضاً كل الأراضى الواطئة وبلاد الفلاندرز .

أما فى إيطاليا فقد كلف البابا هونوريوس الثالث سنة ١٢٢٤ أساقفة برسكيا ومودينا وريمنى بتعقب الهراطقة كل فى أبروشيته . وفى سنة ١٢٢٨ صدرت الأوامر البابوية إلى جيوفرى المندوب البابوى بتسليم الهراطقة إلى السلطات العلمانية لتنفيذ إحراقهم بالنار . كما عين البابا جريجورى التاسع (سنة ١٢٣٢) الراهب الدومنيكانى ألبريك (Alberic) مفتشاً عامًّا على لومبارديا ، وفى سنة ١٢٣٣ عين بطرس من فيرونا مفتشاً على ميلان ، ثم الراهب الدومنيكانى ألدوبراندينى (Aldobrandini) مفتشاً على فلورنسا .

أما فى صقلية ، فقد سيطر الإمبراطور فردريك الثانى بنفسه على محاكم التفتيش ووضع المندوب البابوى الموفد من قبل جريجورى التاسع تحت نفوذ التاج الصقلى ، وكان فردريك يضم أملاك وأموال من تم إدانتهم إلى خزانته الملكية . وفى سنة ١٢٢٠ أصدر فردريك قراراً ملكيًّا بتحريم الهرطقة وعقاب الهراطقة بحكم الموت ، وقد عمم هذا القرار على سائر أرجاء إمبراطوريته الرومانية المقدسة بقرار آخر سنة ١٢٣٨ ، وكلف كوانراد دى مربورج للقيام بمهمة التفتيش فى ألمانيا ، نيابة عنه .

وانتقل نشاط محاكم التفتيش من ألمانيا إلى بوهيميا والمجر والبلاد السلافونية ثم إلى اسكنديناوة وانجلترا ، بل إن أثرها وصل أيضاً إلى بيت المقدس !

---

(١١) Bouquet, Historiens des Gaules, t. XXII, P. 55; cf. Chronique rimée, vers. 28879 - 28882. :

"Par le commant de l'apostole.
Qui li et enjoint par estole.
Et par la volonté du roi.
De France, ki l'en fist otroi."

(١٢) Laurière, Ordonnances des rois de France, t. I, P. 211.

أما فى أسبانيا ، فقد قرر الملك جيمس استدعاء المفتشين الكنسيين إلى بلاده لتطهيرها من الهراطقة ، وذلك فى رسالة بعث بها إلى البابا جريجورى التاسع فى ٢٦ مايو ١٢٣٢ ، وذلك بتشجيع من كاهن اعترافاته الراهب الدومنيكانى رايموند دى بنافورت .

أما تشكيل محكمة التفتيش فكان على الوجه الآتى : المفتش الكنسى مفوض من قبل البابوية ، ومنها يستمد صلاحياته فى الربط والإدانة ، وهو أشبه ما يكون بالقاضى . كما أن الأراضى التى يقومون بالتفتيش عليها تصبح طيِّعة لكل أوامرهم ، دون تدخل من أساقفتها أو أمرائها الإقطاعيين أو قضاتها المدنيين . والمفتش الكنسى هو الذى يوجه الاتهام ، ويحكم فى القضايا ، ويصدر الإدانة . وأمام هذه الصلاحيات العريضة ، خشى الأساقفة المحليون أن تضيع هيبتهم أمام الرعايا ، فهرعوا متطوعين لمعاونة محاكم التفتيش حتى تزداد قيمتهم فى نظر الناس . إلا أن مجمع فينا المنعقد سنة ١٣١٢ نظم العلاقة بين الأساقفة ومحاكم التفتيش ، فأذن للأساقفة كل فى أبروشيته بإقامة سجون خاصة لإيداع من تثبت إدانتهم من الهراطقة .

أما تكوين محكمة التفتيش فكان على الوجه الآتى : المفتش العام هو رئيس المحكمة والفيصل فى نظر القضايا . ويعاونه نفر من المتخصصين هم : نائب المفتش ، والمسجل القانونى ، والمستشار القانونى ، والحليف والمحلفون :

يعرف المسجل الشرعى باسم « نوتارى » (Notarius) ، ويتم اختياره بالتفويض من روما[١٣] . ومهمته استدعاء المتهمين للمثول أمام المحكمة ، وكذلك استدعاء الشهود ، والإشراف على تدوين السجلات الأصلية لوقائع القضية ونسخها . كما أنه يقوم بتوجيه بعض الأسئلة للمتهمين . ولئن تعذر حضور المفتش حل المسجل مكانه فى رئاسة الجلسة .

أما الحليف (Socius) فهو رجل دين — غالباً ما يكون من أبناء الدومنيكان أو الفرنسيسكان — يختاره المفتش العام ليعاونه فى حيثيات التفتيش جميعاً ، وهو يسكن معه رفيقاً ، ويقدم له النصح ، ويدبر له شئون حياته الخاصة ، ويصحبه أيضاً إلى

(١٣) "Publicus anctoritate apostolica officii inquistionis notarius".

روما لإنجاز الأعمال فى البلاط البابوى[١٤].

أما المحلفون (Jurati) فهم نفر مختار من رجال الدين والعلمانيين ، للاستفادة بآرائهم ولاستكمال ما قد ينقص المحكمة من معلومات .

وتستعين المحكمة أيضاً بعدد من الضباط (Servientes) وحاملى الرسائل (nuntii) والأدلاء (المخبرين) (exploratores) والسجانين (Carcerarii) . ويلعب الأدلاء دوراً خطيراً فى مهام المحكمة ، فهم قد يسافرون متنكرين إلى خارج البلاد لتعقب الهراطقة الهاربين ، وقد ينضمون إلى اجتماعات الفئات المهرطقة للتحقق من تعاليمهم وطقوسهم ، ثم يعودون إلى المحكمة للإدلاء بآرائهم ضد المتهمين . وقد برز فى هذا الخصوص شخص يدعى أرنود سيكريت (Arnaud Sicret) الذى كان فى خدمة محكمة باميه (Pamiers) وسافر متنكراً إلى إسبانيا ، يتعقب نفراً من « الأطهار » اللاجئين هناك[١٥] . إلى جانب هذا كانت المحكمة تستعين بنفر من المشرفين على السجون الخاصة بإيداع الهراطقة وعرفوا باسم « مشرف السجون » (Custos - muri) ، ويعاونهم عدد من المعاونين لمراقبة المساجين وعرفوا باسم « السجانين » (Carcerarii) وقد اعتاد هؤلاء الأخيرون على اصطحاب زوجاتهم معهم إلى مقام خاص لهم فى السجن ، نظراً لطول مدة إشرافهم على المساجين . وقد عرف عن هذه الفئة الأخيرة التراخى فى الحراسة وتقبل الرشوة .

وقد بلغ عدد أفراد المحكمة التفتيشية ١٢ تقريباً ، ولكن إصدار الحكم كان وقفاً على المفتش فقط[١٦] .

* * *

بعد هذا العرض لتشكيل محاكم التفتيش يحسن بنا أن نتقصى رأى هذه المحاكم فى مختلف الفرق «المهرطقة» التى عرضنا لها فى الفصل السابق . تروى مصادر وسجلات

(١٤) Eymeric, Directorium, Part. iii, 9. X, P. 551 : "..ad se associandum, commorandum et de exsequendum officium haereticae previtatis, et cum eisdem procedere hinc et inde, etiam ad romanam curiam". Bibliotheque du Vatican, ms. Lat. 4030.

(١٥) Vidal, Le tribunal de l'Inquisition de Pamiers, P. 151 - 152.

(١٦) "duodecim alios inter officiales et familiares et non ultra..."

محاكم التفتيش أنه فى سنة ١١٦٧ عقد « المانويون » (الأطهار) مجمعاً فى سانت فيلكس دى كارامان (Saint-Felix de Caraman) على مقربة من بلدة تولوز ، تحت إمرة زعيمهم نيكيتا . وبعدها أقيم للأطهار « أساقفة » من بين « الكاملين » للإشراف على جماعاتهم فى أنحاء غرب أوربا . ومن أشهر هؤلاء : مارك، على كنائس لومبارديا وتوسكانيا وترڤيز ، ثم روبرت دى سبيرونى(de Sperone) لشمال أوربا، ثم سيكارد كيليريه (Sicard Cellerier) على مدينة ألبى (Albi) ، ثم برنارد ريموند على كنائس تولوز ، ثم جيرارد ميرسييه (Mercier) على كنائس كركاسون ، ثم ريموند كساليه (Casalis) على كنائس ڤال دأران (Val d'Aran) فى ولاية كومين(١٧) .

ويلاحظ أن نفراً قليلا من هؤلاء « الأطهار » قد تنكروا فيما بعد للحركة وانقلبوا عليها وعين بعضهم فى منصب المفتش العام لإرهاب الجماعة . ولعل البابوية فى هذا كانت فى غاية الدهاء ، إذ أن مثل هؤلاء « المرتدين » كانوا على علم بخفايا جماعاتهم وبممارساتهم الخفية قبل العلنية . ومن هذا الصنف كان بوناكورسوس (Bonacursus) الذى ذهب فى اضطهاده لإخوانه السابقين أبعد شوط ، فهو فى إحدى المناسبات يصرخ مستنجداً بالبابوية فيقول : « ألا تشاهدون المدن والمراكز والقلاع ؟ لقد امتلأت البقاع كلها بهولاء الأنبياء الكاذبين ، ووجب اقتلاع هذا العشب الخبيث من كنيسة المسيح وعروسه قبل أن يمتد دنسهم ليلوث طهرها »(١٨) .

وتروى نفس السجلات أن « الأطهار » (المانويين) يمقتون الزواج ، فهنالك تلك الفتاة من طبقة « الكاملين » فى تولوز تحدث زوجة تاجر للأخشاب من صديقاتها — وكانت حاملا — فتقول لها « إنى أطلب الله لك أن يريحك من الشيطان الذى تحملينه بين أحشائك » . كما وأن المرأة التى تموت وهى حامل ، يصبح جرمها بشعاً فى

(١٧) Historiens de Gaule, t - XIV, P. 448.

(١٨) Bonacursus, Vita haereticorum, in P.L., Vol. 204, Col. 778 : "Et quis tam parvi sermus est, qui non apertissime intelligat istud esse tempus, de quo prophetiae praedictae loquntur ? Nonne jam civitates, suburbia, villas et castella hujusmodi pseudoprophetis plena esse videmus ? Qui verbi semen suis conculcantes pedibus, zizaniam sui erroris seminare non disistunt, atque sponsam Christi, sanctam videlicet Ecclesiam, pestifero veneno nimia importunitate corrumpere nituntur..."

نظرهم — أمام السماء — ولا خلاص لها لأنها تموت وهى تحمل إبليساً صغيراً فى بطنها[١٩] . والزواج عند الأطهار لا يعدو أن يكون « بغاء مقنناً »[٢٠]. ويزعم رجال محاكم التفتيش أن « الأطهار » يمارسون حرية الجنس بدلا من الزواج ، والرأى عندهم أن الزواج يقنن ارتكاب الإثم والمعصية فى كل حين وبدون خوف من عقاب[٢١] .

كذلك ساق المعاصرون وصفاً تفصيلياً « لعماد الروح » . (Consolamentum) لدى « أطهار » الجنوب الفرنسى : فيضع « كامل » (Perfectus) من كبارهم يديه على العضو المتطهر وهو يقول : « أيها الأب القدوس ، تقبل خادمك الذى بين يديك فى بيت عدالتك ، وأنعم عليه بنعمة من روحك القدوس الطاهر » . ويرد العضو قائلا : « وإنى أهب نفسى كلية للرب والإنجيل ، ولن أكذب ولن أحلف ولن ألمس ابنة حواء ولن أقتل حيواناً ، ولسوف أعاف اللحم والبيض ، وأقتات فقط على النبات والسمك . ولن أرحل على طريق دون أخ رفيق ، ولئن وقعت فى شرك العدو ، وفرق بينى وبين رفيقى ؛ فعهد علىّ أن أمتنع عن الطعام ، ولن أحنث بعهد الأخوة ولن أتنكر لمذهبى ، ولن أنام إلا ملتحفاً . أما الموت فحاشى لى أن أخشاه حتى فى وجه المحاكم »[٢٢] .

وتلح سجلات محاكم التفتيش على اتهام جماعات « الأطهار » بأنها كانت تمارس الفجور فى اجتماعاتهم علناً . والحق أنه ليس هنالك دليل قاطع يبرر عمومية هذا الاتهام . ولقد ورد على لسان واحد منهم أثناء محاكمته فى بلدة دوفينى (Dauphiné) سنة ١٤٨٨ الاعتراف الآتى : « نحن قوم مؤمنون ، وخدام للملك ومسيحيون حقيقيون . لسنا نريد أبداً أن نقلد هؤلاء الذين وطأوا بأقدامهم على الأناجيل ، أو أولئك الذين

---

(١٩) "quod si decederet praegnans, non posset salvari".

(٢٠) Dictionnaire de Theologie Catholique, t. XII, Col. 2027 : "matrimonium est lupanar." cf. Alani insulis, Contra haereticos et Waldenses, in P.L., Vol. 210, cols-365-66 : "Praedicta etiam haeretici nuptias damnant.. Dicunt etiam conjugium obviari legi naturae quie lex naturalis dictat omnia esse communia..."

(٢١) Ibid., Col. 2027 : "quia magis publice et sine verecundia peccatum fiebat..".

(٢٢) Cledat, Le Nouveau Testament traduit au XIIIe siécle en langue provençale, suivi d'un rituel Cathare. Paris, 1888, P. XI sq.

نبذوا تراث الرسوليين . . إنما نحن ننشد حياة تقوم على الزهد والطهر كما كانت الحال فى الأيام الباكرة للإيمان القويم »[٢٣] .

أما عن سير المحاكمة ، فإن هذا يتضح من رسالة موجهة من البابا جريجورى التاسع إلى المفتش كونراد دى مربورج فى ١١ أكتوبر ١٢٣١ ، وهى تنص على الخطوات التالية :

١ ــ التوجه إلى البقعة المعينة .

٢ ــ الاتصال بأهل الثقة فى البلدة للاستنارة بفكرة عامة عن الأحوال .

٣ ــ القبض على المشكوك فى أمرهم .

٤ ــ الاستعانة بالشهود .

٥ ــ التثبت من الإدانة .

٦ ــ الدفاع .

٧ ــ السجن .

٨ ــ التعذيب .

٩ ــ الحكم العلنى . مقروناً بالوعظ والإرشاد لأهل البلدة .

وكانت كل خطوة من هذه الخطوات تصطدم ــ بالضرورة ــ بردود فعل عنيفة من جانب المتهمين : ففى ٢٨ مايو ١٢٤٢ تم اغتيال المفتش وليم أرنولت ورفيقه الفرنسيسكانى المدعو ستيفن دى سانت تيبرى عند قلعة أفينونيه (Avignonet) كما هلك معهما الكتبة والمسجل القانونى أيضاً .

وكان من بين مهام بعثة محكمة التفتيش عندما تحل ببلدة ما ، أن يبدأ المفتش

(٢٣) Jules Chevalier, memoire historique sur les heresies en Dauphiné avant le XVIe siécle, Valence, 1890, P. 85 : "Nous sommes des fideles serviteurs du roi et de vertitables Chretiens. Nous ne voulons pas imiter, ceux qui foulent aux pieds l'Evangile et ont abandonné les traditions apostoliques. Ce que nous recherchons, c'est la pauvreté et l'innocence qui ont présidé à l'etáblissement et aux premiers developpements de la foi orthodoxe".

العام نشاطه بإلقاء عظة عامة على مسامع أهل البلدة ، يدعو فيها من تساوره أفكار مهرطقة إلى المبادرة بالاعتراف والندم طواعية أمام المحكمة ، ويمهل هؤلاء شهراً على أكثر تقدير ، وقد عرفت هذه المهلة باسم « مهلة الرحمة والغفران » (tempus gratiae sive indulgentiae) .

ومن يتقدم – طواعية للاعتراف ، يحكم عليه بحكم مخفف من الصيام وإعلان التوبة . ويجب ملاحظة أن هذا ينطبق فقط على من يعتنقون آراء مهرطقة غير معلن عنها جهاراً . أما من يتقدم إلى المحكمة ممن عرفوا بالجهر بالهرطقة ، فإنه بدلا من الحكم عليهم بالموت ، يخفف الحكم إلى السجن المؤبد .

على أنه يطلب من الاثنين أن يردد كل منهم قانون الإيمان الكاثوليكى أمام المفتش العام ، ضماناً لعدم الارتداد .

أما المكابرون الذين لايتقدمون للاعتراف أمام المحكمة ، فإنهم يستدعون للقول بإخطار شفاهى أو مكتوب ، وذلك عن طريق رجل الدين المنوط بالمنطقة التى يقطن فيها المتهم بالهرطقة . وإذا تهرب المستدعى أو هرب ، تتعقبه أجهزة المحكمة أينما وجد حتى يقبض عليه . وأحياناً كان المفتش (القاضى الكنسى) نفسه وفى معيته رتل من حراسه يقومون بتعقب الهاربين للقبض عليهم ، وإن لزم الأمر فله أن يستعين بالجند والفرسان . ومن يتقاعس من السلطات المحلية فى مد يد العون للمفتش ، يعرض نفسه لقرار الحرمان الكنسى .

بعد القبض على المتهم ، عليه أن يواجه المحكة بأن يؤدى قسماً على الأناجيل الأربعة بأن « ينطق بالحق عن نفسه وعن غيره من الأحياء ومن الأموات على حد سواء »[٢٤] .

ولكل فئة مهرطقة أسئلة خاصة معدة مسبقاً عند المفتش ، تتناسب وطبيعة فكر هذه الفئة أو تلك بالذات : فهنالك أسئلة خاصة بالمانويين ، وأخرى لأتباع والدو ، وثالثة « لإخوة الروح الحرة » ، وغيرها « لأشباه الرسل » ، وهكذا[٢٥] .

(٢٤) "tam de se ut principalis, quam de aliis vivis et mortuis ut testis". Bibliotheque municipale de Tolouse, ms. Lat. 609.

(٢٥) Dictionnaire de Thelogie Catholique, t. XII, col. 2036 : "Interrogatoria ad =

وعلى المفتش أن يمكر ويراوغ مع المتهمين حتى يحصل منهم على ما يريد من اعتراف ، فهو تارة يخاطبهم بأسلوب معسول ويلوح لهم بوعد من الغفران والصفح ، وقد يأمر لهم بطعام فاخر وقت احتجازهم للتحقيق ، ولقد نجحت أساليب محاكم التفتيش فى جر الأب لأن يشهد على ابنه ، والابن على أبويه ، والزوج ضد زوجته ، والزوجة على رجلها . ولدينا رسالة من البابا جريجورى التاسع ، يهنئ فيها المفتش العام روبرت لى بوجر فى شمالى فرنسا ، على نجاحه المنقطع النظير فى إرهاب الناس حتى شهد الكثيرون ضد ذويهم من لحمهم ودمهم(٢٦) .

والسن المقبولة للإدلاء بالشهادة أمام المحكمة هى ١٤ عاماً بالنسبة للذكور ، و١٢ بالنسبة للإناث . وقد شهدت محاكم التفتيش أطفالا فى سن العاشرة يدلون بالشهادة ضد آبائهم وأخواتهم . ويكفى للإدانة ضد المتهم شهادة شاهدين أو ثلاثة على أكثر تقدير(٢٧) .

وفى أغلب الأحيان ، لا يواجه المتهم بالشهود ضده (شهود الإثبات) ، حفاظاً على سلامة صاحب الشهادة .

أما عن الدفاع عن المتهم الماثل أمام محكمة التفتيش ، فإن أمره يثير الأسى : إذ كانت مهمة الدفاع تنحصر فى التثبت من صحة الاتهامات الموجهة ضد موكله فحسب ، وإن ذلك يعنى فى بساطة أن مهمة الدفاع لا تختلف كثيراً عن مهمة المحكمة نفسها ، وبذلك يصبح الدفاع دفاعاً عن المحكمة والمفتش العام بقدر ما هو دفاع عن المتهم(٢٨) .

---

credentes de secta manichaeorum. — Interrogatoria specialia ad illos de secta Valdensium. — Interrogatoria ad bequinos moderni temporis. — Interrogatoria specialia ad examinandum pseudo - apostolos."

(٢٦) "Bulle Gaudemus", in Ripoll, op. cit., t. I, p. 56 : ".. quod pater filio vel uxori, filius ipse patri, uxor propriis filius aut marito vel consortibus ejusdem criminis in hac parte sibi aliquatenus non parcebant".

(٢٧) "quia regulare est quod in ore duorum vel trium testium stet omne verbum."

(٢٨) Pegna, Directorium, Comment. 280; cf. Dictionnaire de Theologie Catholique, t. XII, Col. 2041 : "Advocati partes erunt reum ut veritatem confiteatur... paenitentiam petat pro culpa, si quam habet ".

ولمحكمة التفتيش الحق كل الحق فى أن تستخدم أساليب الإرهاب والتعذيب (vexatio) لكى تحصل من المتهم على الاعتراف بإثمه : من قبيل ذلك احتجاز المتهم فى سجن خشن ضيق ، حيث يقيد بالأغلال ويحرم من الطعام والشراب والنوم ، فى زنزانات خانقة لا تكاد تسمح حجومها لمجرد الوقوف على القدمين ، وعرفت هذه باسم « الزنزانات الخشنة » (Carcer durus) .

وقد جرى المثل بين رجالات محاكم التفتيش بأن « البلاء يفتح الأفواه المغلقة للاعتراف »(٢٩) .

وإن فشلت السبل السابقة ، تلجأ المحكمة إلى درجات أشد وأقسى من صنوف التعذيب ، ولقد أقر البابا أنوسنت الرابع أسلوب التعذيب فى مرسوم صدر فى ١٥ مايو ١٢٥٢ ، وصدق على القرار كل من البابا اسكندر الرابع (فى ٣٠ نوفمبر ١٢٥٩) ، والبابا كلمنت الرابع (فى ٤ نوفمبر ١٢٦٥) . وقد تعددت أساليب التعذيب : فمنها تعليق المتهم من يديه ورجليه على الحائط (Chevalet) ؛ ومنها دفع المتهم إلى مكان عال ثم الرمى به ليهوى على الأرض (Estropade) ؛ ومنها أيضاً الكى بشعلة نار ملتهبة ؛ وأيضاً طرح المتهم على منصة فى وضع مثلث مع ربطه بحبل يلتف عقداً حول جميع أعضاء جسده ، وينتهى الحبل المعقود برافعة تلم كل الشمل ، فإن لمست الرافعة رضرضت أعضاء الجسد الموثق ، وقد تمزقها تماماً ؛ وقد يوثق المتهم وساعداه مقيدان من وراء ظهره ثم يرفع إلى ربوة عالية ، ومنها يركل ليسقط على الأرض . وأحياناً كانت تربط الأثقال فى قدمى المعذب الموثوق حتى يكون سقوطه مروعاً ومردياً .

وعرف من وسائل التعذيب أيضاً تعريض قدمى المتهم — بعد أن تطليا بالشحم — إلى نار ملتهبة ، وبعد جرعة من هذا المس بنار جهنم يسدل ساتر من الحديد لحجز اللهب عن قدمى المعذب ، وهنا يظهر المفتش لانتزاع الاعتراف من المتهم . وفى كثير من الحالات كان المتهم يموت من العذاب والإرهاب قبل أن يدلى باعتراف ما للمحكمة . والقصص جد وفيرة عن أبطال تحملوا هذا العنت والجرم دون أن تنبث شفاههم بأنة أو صرخة أو حتى مجرد اعتراف .

---

(٢٩) "Vexatio dat intellectum".

والغريب فى الأمر بعد هذا كله ، أن المحكمة تسجل فى سجلاتها أن « المتهم أدلى باعترافاته طواعية ودون تعذيب على الإطلاق »[٣٠] .

بعد هذه الإجراءات تصدر المحكمة حكمها فى مكان عام من البلدة بفم المفتش ، وكانت أغلب الأحكام بالموت حرقاً ، وأقلها كان بالسجن المؤبد . وقد عرف عن بعض الحالات أن فرض على أصحابها ارتداء زى خاص وقت النطق بالحكم ، فنحن نعلم أن جان دارك (سنة ١٤٣١) كانت ترتدى غطاء على رأسها نقش عليه الآتى : هرطيقة عاصية وشيطانة مرتدة .

ويجب أن ننبه هنا إلى أن الكنيسة الرومانية كانت غاية فى الدهاء والمكر : ذلك لأنها بعد أن تصدر الحكم على المتهم تعهد به إلى السلطات العلمانية (الزمنية) لتقوم بتنفيذ الإعدام أو السجن ، حتى توهم البسطاء بأنها قدغسلت يديها من دم الضحايا .

ويستند فقهاء الكنيسة على المادة الخامسة من مقننة جستنيان الخاصة بمعاملة الهراطقة وإدانتهم ، والتى كانت موجهة أصلا ضد المانويين فى بلغاريا ، فى إصدار الحكم بالموت ضد « الأطهار» فى سائر أنحاء غرب أوربا ، نظراً لتشابه معتقدات الجماعتين[٣١] .

وقد أقر فقهاء القانون الكنيسى مثل جراتيان ، وروفينوس ، ويوحنا التيوتونى عقوبة الموت للهراطقة . وسار على هدى فتواهم كبير أساقفة ريمز ، وكونت فلاندرز ، وفليب أغسطس ملك فرنسا ، ورايموند كونت تولوز ، وبطرس ملك أراغون ، وذلك قبل أن يقر الإعدام رسمياً فى مجمع اللاتيران المنعقد سنة ١٢١٥ على عهد البابا أنوسنت الثالث . والواقع أن أنوسنت الثالث كان واضحاً ومتشدداً فى موقفه ، فهو يعلن الآتى : « إذا كان العيب فى الذات الملكية يستوجب القصاص بالموت ، فكم بالأحرى يكون ذلك على من يتطاولون على الله من الهراطقة[٣٢] » .

وللقديس توما الأكوينى نظرية هامة بخصوص الهراطقة ، نرى لزاماً علينا أن نسوق طرفاً هاماً منها ، لما كانت تتمتع به آراء توما الأكوينى من قبول واحترام فى سائر

(٣٠) "praedicta confessus fuit sponte".

(٣١) Codex Justinianus, "De edicto imperatorum in dampnationem haereticorum".

(٣٢) Innocent III, epist. addressée aux magistrats de Viterbe, Epist. II, 1, (Le 29 mars 1199) : "..cum longe sit gravius aeternam quam temporalem laedere majestatem.."

الدوائر الكنسية فى غرب أوربا وبنفس القدر من الاحترام فى الكيوريا والبلاط البابوى . يقول الأكوينى : « يجب النظر إلى جريمة الهرطقة من زاويتين : أولاً من حيث طبيعة الجريمة فى حد ذاتها ، وثانياً من حيث تهديدها لنظام الكنيسة . فى الناحية الأولى نرى أن الهرطيق يستوجب الحرمان ثم الموت أيضاً ؛ لأن إفساد العقيدة — وهو أمر يتصل بالروح — يمثل جرماً أخطر من جريمة تزييف النقود مثلا . فإذا كان القانون يعرض مزيف المال للموت ، فكم هو حرى إعدام الهراطقة . أما عن الكنيسة ، فإنه نظراً لطبيعة رسالتها الرحيمة وسعيها الدائب لإنقاذ الضالين ، فإنها تدعو المهرطق إلى الاعتراف والتوبة ، فإن ظل على عناده ، محتقراً نداء الغفران والرحمة ، فإنها تقوم بقطعه من جسد الكنيسة العالمية (بالحرمان واللعنة) ثم تسلمه إلى السلطات العلمانية لاستئصال حياته من هذا العالم ، فيصبح موته حلالا »[٣٣] .

ويستند توما الأكوينى فى نظريته على ما ورد فى الكتب المقدسة : من قبيل ذلك « إن كان أحد لا يثبت فىّ ، يطرح خارجاً كالغصن فيجفف ويجمعونه ويطرحونه فى النار فيحترق »[٣٤] .

وتصر الكنيسة ، وابنتها المدللة محكمة التفتيش ، على فكرة « التخلى » (Relinquimus) عن من تثبت إدانته بالهرطقة ، ومن ثم فهو لا يستحق الرحمة الكنسية ، ويسلم إلى السلطات العلمانية ليهلك حرقاً ، دون أن تتحمل الكنيسة وزر موته[٣٥] .

---

(٣٣) S. Thomae Aquinatis, O.P., Summa Theologia, Vol. III (Editio Cardinali Josepho Pecci), Quaest. XI, Articulus III, P. 78) : "Respondeo dicendum quod circa haereticos duo sunt consideranda : unum quidem ex parte ipsorum; aliud veró ex parte Ecclesiae. Ex Parte quidem ipsorum est peccatum, per quod meruerunt non solum ab Ecclesia per excommunicationem separari, sed etiam per mortem a mundo excludi. Multo enim gravius est corrumpere fidem, per quam est animae vita, quam falsare pecuniam, per quam temporali vitae subvenitur. Unde si falsarii pecuniae vel alii malefactores statim per seculares principes juste morte traduntur, multo magis haeretici statim ex quo de haeresi convincuntur, possunt non solum excommunicari, sed et juste occidi."

(٣٤) John, XV, vi, "in ignem mittent et ardet."

(٣٥) Bernard Gui, Practica, part. III, P. 144; Alain, Decretales, 472, not. 3 : "Nota quod Ecclesia RELINQII judici saeculari puniendos, TRADERE autem non debet". — "Cum Ecclesia ultra non habeat quod faciat pro suis meritit contra eum, relinquimus brachio et jtudicio curiae saecularis."

رأينا فيما سبق أن العقوبات التى تقررها محاكم التفتيش تنحصر فى حكمين : إما السجن المؤبد ، أو الموت .أما السجن (murus) فكان لمن يعترف بإثمه ويعلن استعداده للتوبة ، وعرف السجن عن ثقات محاكم التفتيش باسم « مهلة الرحمة » ، وهو درجتان: سجن مشدد (durus, strictus, arctus) ؛ وسجن مخفف. (murus largus) ، وفى حالة السجن المخفف ، يمكن للأهل القيام بزيارة النزيل ، ويسمح له بفسحة من الوقت فى ردهات السجن .

أما النزيل سجناً مشدداً ، فيوثق بقيود فى قدميه ، ويلقى به فى زنزانة قذرة ومظلمة ، وقد يرحل سراً إلى زنزانة خاصة فى أحد الأديرة . وهنالك يلقى له « بخبز الأحزان وماء التعاسة » من خلال طاقة صغيرة ، ويكتب على بوابة الزنزانة « دار الآمنين » (in pace) . وتبين إحصاءات تولوز لعامى ١٢٤٤ / ١٢٤٦عن عدد ٥٢ حالة منها ٢٧ حالة بالسجن مدى الحياة .

وقد بلغ عدد من أدينوا على يد المفتش العام برنارد جى فى تولوز فى المدة من ١٣٠٨ إلى ١٣٢٣ قرابة ٩٠٣ حالة ؛ أودع السجن منهم ٣٠٧ حالة . وفى بعض الأحيان — كما حدث فى بلدة پاميه (Pamiers) — سمح لبعض السجناء بالتطوع فى حملات صليبية بدلا من البقاء فى زنزاناتهم . وقد يسمح لبعض المساجين بأجازة تتطلبها ظروف مرضية شديدة : أو حالات الوضع بالنسبة للسيدات .

ويميز الهرطيق أثناء سجنه بعلامة للصليب مستديرة ، وأحياناً بعلامتين على الصدر أو على جانبيه . وقد ينقش الحكم على السجين على صدر ملابسه ، ثم يساق إلى الأسواق العامة والطرقات وفى أيام العطلات والأعياد والآحاد ، ليسخر الغوغاء منهم :

أما فكرة القيام بزيارة الحج — ككفارة عن الهرطقة — فقد ظهرت متأخرة بعض الوقت ؛ وكانت مزارات الحج إما إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين ، أو فى بلدان أوربا نفسها : مثل كنتربرى فى انجلترا ، أو سان جاك دى كومبستيلا فى أسبانيا وغيرهما من الأماكن .

ويطلب من الشخص أن يبعث برسالة من مقام الحج لإثبات وصوله إلى المقام المحدد . وإلى جانب الحج إلى الأماكن المقدسة ، ظهرت فكرة العقاب بالجلد فى مكان عام . وقد خضع لهذا العقاب الكونت ريموند صاحب تولوز نفسه ، وذلك فى

كنيسة صان جيل (St. Gilles) سنة ١٢٠٩ ، لكي يبرهن على ندمه وتوبته .

وكان على النادم أن يقصد إلى كنيسة معينة ، حافى القدمى مرتدياً قميصاً وقماطاً (in camisia et braccis) ، حاملا فى يد شمعة وفى اليد الأخرى القضيب الذى يجلد به . ثم يحضر صلاة القداس من ركن يراه فيه جميع المصلين . وبعد انتهاء الصلوات ، يتقدم نحو المذبح ، ويسلم الشمعة والقضيب للمسئول ، ثم يركع على ركبتيه ليتلقى الجلد راضياً نادماً[٣٦] .

وبعد الجلد ، يعلن الشخص فى صوت عال أنه قد تلقى جزاءه على ما قدمت يداه من إثم .

وفى بعض الحالات صار فى الإمكان دفع غرامة مالية بدلا من التعرض للعقاب البدنى ، وقد أقر هذا البابا أنوسنت الرابع سنة ١٢٥١ .

كذلك عمدت محاكم التفتيش إلى مصادرة أملاك الهراطقة وأموالهم . فلقد قرر الفقيه جراتيان (بند ٧ من الفقرة ٢٣) — اعتماداً على حجة القديس أغسطينوس — بأن مصادرة أملاك الهراطقة تتوافق مع القانون الرومانى . وقد أقر هذا المبدأ مجمع ريمز سنة ١١٥٧ ، ومجمع تور سنة ١١٦٣ ، ومجمع فيرونا سنة ١١٦٤ ، ثم صدر به مرسوم فى المجمع اللاتيرانى المنعقد فى ظل البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ . وسار البابوات بعد ذلك على هداه .

والغريب فى هذا الأمر أنه حتى وإن كان للهرطيق أبناء لاغبار ولا شبهة على إيمانهم ، فإنهم لا يرثون شيئاً من أملاك والدهم .

وهذا الموقف المتعنت يجافى ما ورد فى القانون الرومانى ؛ الذى يعطى الأبناء الذين تثبت براءتهم من إدانة آبائهم ، حق الميراث . كذلك لجأت البابوية إلى هدم منازل الهراطقة ، فلقد كتب البابا أنوسنت الثالث فى ٢٣ سبتمبر ١٢٠٧ يأمر بأن تهدم جميع الدور التى استخدمت كملجأ للهرطقة أو كندوة لنشر آراء المهرطقين ، على أن تدك من سقفها حتى أساسها[٣٧] .

(٣٦) Bernard Gui, Practica, part. III, P. 165.

(٣٧) P.L., Vol. CCXV, col. 1226.

ولما أن جاء البابا أنوسنت الرابع رأى فى ١٥ مايو سنة ١٢٥٢ ضرورة هدم المنازل المجاورة لمنزل الهرطيق ، خشية أن تكون قد تلوثت بوباء الهرطقة . إلا أن البابا اسكندر الرابع رأى فى هذا القرار تطرفاً زائداً ، فألغاه فى ٦ مارس سنة ١٢٥٧ ؛ والسبب فى ذلك الإلغاء يرجع إلى أن تنفيذ هذا القرار كان سوف يؤدى حتما إلى إزالة قرى ومدن بأكملها . وقد حسم المفتش العام إيمريك (Eymeric) هذا الأمر بأن قرر إزالة البيوت التى تم فيها بالفعل إقامة شعائر مهرطقة .

وأخيراً ، فقد لجأت محاكم التفتيش إلى إحراق جثث الموتى من المهرطقين ، خشية أن يصاب المكان الذى يضم رفات الهرطيق بالدنس . ومن ثم تقرر أن يكون الهرطيق وقوداً للنار ، ونحن نعلم أن قبوراً عدة قد نبشت ، وأن جثثاً كثيرة قد أهينت حرمتها فى الطرقات ، وسط قرع الطبول ولهيب المحرقة ! !



الباب الثالث

صور من قمع محاكم التفتيش
والصليبيات ضد الفكر المخالف

الأستاذة الدكتورة
إسمهان غنيم



صور من قمع محاكم التفتيش
والصليبيات ضد الفكر المخالف

إن أهم سمة تميز جماعات المخالفين فى غرب أوربا فى القرن الثانى عشر هى سمة الزهد ، والدعوة إلى البساطة الأولى . وقد انتعشت هذه الآراء فى وقت كانت الكنيسة فيه قد تردت فى وحل السيمونية (بيع المناصب الدينية بالمال) والنيقولاوية (زواج رجال الدين) . فافتضح أمر البابوية وكبار الأساقفة والأساقفة جميعاً ، وطرحت قضية الإكليروس على بساط الشك من أساسها . وكان أشد المتحمسين لآراء « الأطهار » من أتباع والدو طبقة النبلاء فى الجنوب الفرنسى الذين كانوا يمقتون ذاك الثراء الفاحش الذى بات على جنباته رجال الدين فى فرنسا . وكان النبلاء يتطلعون إلى الفرصة السانحة لينقضوا على أملاك رجال الدين الشاسعة ليأخذوا منها نصيباً . ولكن البابوية كانت تفرض الحماية والحصانة على تلك الكنائس والأملاك .

ولقد كانت البابوية تنظر فى قلق زائد إلى نشاط أتباع والدو — أو الألبجنزيين — غير أن صراعها ضد الامبراطور الألمانى قد شغلها بعض الوقت عن المبادرة بقمع هذه الجماعة . ولما أن اعتلى البابا أنوسنت الثالث العرش البابوى ، بدأ نشاطه بمحاولة كسب الكونت رايموند السادس صاحب تولوز إلى جانبه ضد الألبجنزيين . إلا أن الكونت رايموند كانت لديه من الدوافع ما يجعله يتعاطف مع الألبجنزيين ، نكاية فى نفوذ كبار رجال الدين المتزايد فى أراضيه . أما بطرس الثانى ملك أراغون ، فقد كان بدوره حليفاً لرايموند السادس . أما عن الملك الفرنسى فيليب أغسطس فقد كان منهمكاً فى صراعه المرير ضد ملوك انجلترا حول دوقية نورمانديا .

وفى سنة ١٢٠٧ طلب البابا أنوسنت الثالث من الملك فيليب أغسطس التدخل على رأس حملة «صليبية» . لقمع الألبجنزيين فى الجنوب الفرنسى . إلا أن فيليب أغسطس كان يخشى أن ينتهز الملك الإنجليزى يوحنا الفرصة للانقضاض على الشمال الفرنسى ، إن أقدم فيليب ورجاله على شن حملة فى الجنوب الفرنسى . يضاف إلى هذا أن يوحنا كان صهراً لرايموند السادس صاحب تولوز .

وأخيراً بعد أن نفد صبر أنوسنت الثالث ، أعلن فى ١٥ يناير ١٢٠٨ قيام حملة صليبية ضد الألبجنزيين وعد من يشارك فى هذه الحملة بالغنائم من الأراضى التى تقع فى أيديهم من أملاك الهراطقة . وبادر فيليب أغسطس فأرسل رسالة إلى البابا أنوسنت الثالث يقول الآتى : « . . . فيما يتصل بأمر استيلاء الصليبيين على أراضى كونت تولوز بالحرب ، فلتعلموا أننا بعد مشاورة أهل العلم والمشورة وجدنا أنه ليس من حقكم القيام بهذا العمل إلا بعد أن تصدروا إدانة صريحة بالهرطقة ضد الكونت (رايموند السادس) . وعندما تتم هذه الإدانة من جانبكم ، يمكنكم عندها مخاطبتنا بقصد الموافقة على مصادرة أملاك الكونت ؛ لأن هذه الأملاك هى أراض خاصة بتابع (فصل) إقطاعى من أفصالنا . وحتى الآن لم يصلنا منكم ما يفيد بأن الكونت قد أدين بالهرطقة »[1] .

والواقع أن البابا أنوسنت الثالث كان قد أوفد قاصداً رسولياً هو بيار (بطرس) دى كاستللينو لتهدئة الموقف فى الجنوب الفرنسى . ولكن الكونت رايموند السادس صاحب تولوز لم يرض عن نشاط القاصد الرسولى ، فقام بيار بإصدار قرار بالحرمان ضد رايموند وبالقطع ضد أراضيه .

وجن جنون رايموند وهاج رجاله ، وتسلل واحد من أتباع رايموند واغتال المندوب البابوى على مقربة من بلدة ضان جيل . وعليه فقد دعى أنوسنت الثالث إلى حملته الصليبية ضد الألبجنزيين .

سارع الآلاف من الفرسان المفلسين فى الشمال الفرنسى يلتفون حول اللواء البابوى فى الصليبية ضد الألبجنزيين ، أملا فى ثروات الجنوب الفرنسى وغنائمه . واسقط رايموند السادس فى يده ، ومع أنه قد أعلن التوبة والندم ، بل حمل الصليب ضد الألبجنزيين ليرد كيد الصليبيين عن بلاده وجشع الفرسان المفلسين الطامعين عن أراضيه ، إلا أن صرخاته ذهبت أدراج الرياح . فلقد وصلت الحملة إلى أرض اللانج دوك لتأتى على الحرث والنسل .. وكان على رأس الحملة الصليبية نبيل من رجالات باريس هو سيمون دى مونت فورت ، إلى جانب المندوب البابوى الجديد أرنولد

(١) Delisle, L., Cataloĝue des Actes le Philsppe Auguste, Paris, 1856, P. 513.

آمالرك (Arnaud Amalric) . ولقد أقدمت الحملة الصليبية على مذابح رهيبة أشهرها ما تم فى حصار وسقوط بلدة بيزييه (Beziers) فقد قتل الصليبيون ١٥,٠٠٠ من سكانها دفعة واحدة(٢) .

وسقطت مدائن بيزييه وكركاسون وناربون فى أيدى الصليبيين ، وبادر المندوب البابوى بالإنعام على سيمون بلقب نائب كونت بيزييه وكركاسون مكافأة له على جهوده الصليبية . ومع أن البابا أنوسنت الثالث لم يكن راضياً تماماً عن سيمون دى مونت فورت ، إلا أن تقاعس الملك فيليب أغسطس قد قرر الموقف فى صالح سيمون . والجدير بالذكر أن المندوب البابوى أرنولد قد كافأ نفسه بمنصب كبير أساقفة ناربون ، وهى أغنى أسقفيات البلاد . فى هذه اللحظات الحرجة زحف الملك بطرس الثانى من أراغون لنجدة قريبه رايموند السادس ، إلا أن سيمون نجح فى إلحاق الهزيمة بالملك الأرغونى وقتله فى معركة موريه (Muret) سنة ١٢١٣ .

ولما أن إنعقد مجمع اللاتيران سنة ١٢١٥ برئاسة البابا أنوسنت الثالث ، قرر المجتمعون إدانة رايموند السادس كونت تولوز بالهرطقة « الألبجنزية » ، وصادروا أملاكه . هذا على الرغم من أن رايموند — لما ضاق به الحال ورأى شعبه وأرضه نهباً للصليبيين — كان قد أعلن التوبة والندم وأعلن عن عزمه فى حمل الصليب ضد الهراطقة !! ولكن الكنيسة الرومانية لم تكن على استعداد لأن تعيره التفاتة . وذهب المجمع اللاتيرانى إلى حد بعيد ، إذ قرر توزيع الأراضى التى استولى عليها الصليبيون على المشاركين فى الحملة كغنائم . وهكذا لم يبق لرايموند السابع — الوريث — إلا بضع أراض فى بوكير (Beaucaire) ونيم (Nimes) .

أمام هذا الموقف المعقد ، وجد الملك الفرنسى فيليب أغسطس نفسه مضطراً إلى الاعتراف بالأمر الواقع ، واتفق مع المندوب البابوى على أن يقبل الملك رئيس الحملة سيمون دى مونت فورت فصلاً إقطاعياً من أفصاله على أن يقطعه كلا من بيزيه وتولوز وكركاسون (ميلون ١٢١٦) .

(٢) Masson, G., Medieval France, London, 1917, P. 91. See also Guiraud, J.H., Histoire de l'inquisition au moyen age., Paris, 1935.; Chanson de la croisade contre les Albigeois. (Ed. Meyer, P., 2 vols.), Paris 1875 - 1879.; Cambridge Medieval History, Vol. XI.

بعد أن أصيب رايموند السادس باليأس والإحباط ترك الأمور إلى ابنه ووريثه رايموند السابع . وقد كان هذا الكونت الشاب جسوراً ، فجمع رجاله وهجم على تولوز، وعند أسوار المدينة تم اغتيال سيمون دى مونت فورت .

وارتبكت الأمور فى الجنوب الفرنسى ، خاصة وأن عمورى ابن سيمون القتيل لم يكن نداًّ للموقف .

فى هذه اللحظات الحرجة رأى فيليب أغسطس أن الوضع فى الجنوب الفرنسى يحتاج إلى تدخله المباشر ، رغم ما كان يحيط باريس من مشكلات مع التاج الإنجليزى . ولذلك فإنه عهد إلى ابنه لويس الثامن بقيادة حملة إلى الجنوب الفرنسى لتصفية المواقف .

زحف لويس الثامن على رأس جيشه صوب الجنوب الفرنسى ، محوطاً بأساقفة سنليس (Senlis) ونويون (Noyon) وتورناى (Tournai) ، ثم ضرب معسكراً عند بلدة لاجنيه (L'Agenais) ، التى كان رايموند السابع قد استردها من الصليبيين . ثم هجم لويس على بلدة مارماند (Marmande) ودمرها ، وتمت فيها مذبحة رهيبة . إلا أن تولوز ظلت القلعة الصامدة فى الجنوب ، ولم يقو فرسان الشمال عليها لمناعتها واستبسال فرسانها فى الذود عن أنفسهم . وشعر لويس وأفصاله بالملل والقنوط فقرر العودة إلى باريس . أما عن عمورى ابن سيمون دى مونت فورت فإنه قد بادر بالانسحاب من ميدان القتال أيضاً . وهنا خرج « الألبجنزيون الأطهار » من مخابئهم فى الجبال ، والتفوا حول رايموند السابع ، وفتحت بوابات المدارس الألبجنزية من جديد .

بعد وفاة فيليب أغسطس خلفه على عرش باريس ابنه لويس الثامن الذى كان يتحلى بالكثير من الشجاعة . إلا أن العرش البابوى قد شغل فى عهده بأحد البابوات الضعاف هو هونوريوس الثالث .

ولكن المندوب البابوى فى فرنسا وهو الكردينال دى سانت أنج (Cardinal de Saint Ange) كان شخصية قوية فقد عقد مجلساً فى نوفمبر ١٢٢٥ ، أعلن فيه رفضه لما كان

قد أبداه رايموند السابع من خضوع وتطلع للمصالحة . وفى ٢٨ يناير ١٢٢٦ ، عقد المندوب البابوى مجلساً آخر فى باريس أنزل فيه قراراً بالحرمان ضد رايموند السابع ، إلى جانب مصادرة أملاكه ونقلها إلى حوزة لويس الثامن . وهنا قرر عمورى ابن سيمون دى مونت فورت وضع جميع الأراضى التى دانت لوالده وله فى الجنوب الفرنسى تحت تصرف التاج الفرنسى .

وفى مقابل هذه المكافأة السخية أخذ لويس الثامن على عاتقه مهمة البابوية فى تثبيت دعائم محاكم التفتيش فى الجنوب الفرنسى لقمع الألبجنزيين . ولكى يبالغ فى إرضاء روما وسيدها قرر إقامة محاكم للتفتيش أيضاً فى الشمال الفرنسى . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يصدق فيها القانون الفرنسى على عقاب الهراطقة بالحديد والنار[٣] .

بعد هذا أمر لويس الثامن جيوشه بالاستيلاء على مدينة أفنيون ، بسبب رفضها للصليبيين العبور على أرضها نحو الجنوب ، فدمرت أسوارها وانتقم من أهلها . ثم عين لويس الثامن مندوبين عنه برتبة « سنكال » (Senechal) للإشراف على الأراضى المصادرة فى الجنوب الفرنسى . وقام فرسان الشمال بنهب خيرات الجنوب الفرنسى تحت شعار الصليب ومحاكم التفتيش .

ظل رايموند السابع يكافح ضد التاج الفرنسى إلى أن أبرمت بين جميع الأطراف معاهدة باريس سنة ١٢٢٩ .

فى عهد الملك لويس التاسع ووالدته بلانش القشتالية الوصية على العرش ، وبمؤدى هذه المعاهدة أقطع رايموند السابع كونتية تولوز ، ولاجنيه (l'Agenais) ولى رويرج (Le Rouergue) ، وكيرسى (Quercy) ، وشمال منطقة ألبجوا (Albigeois) . أما البابوية فقد حصلت على ماركيزية بروڤانس (Provence) فى برغنديا . كما حصل التاج الفرنسى على المناطق بين الرون والبحر المتوسط . كما نصت المعاهدة على زواج ابنة ووريثة رايموند السابع من الأمير الفرنسى شقيق لويس التاسع ،

(٣) Havet, J., L'heresie et le bras séculier au moyen age jusqu'au XIIe siécle, Paris, 1880, P. 595.

الذى يصبح له الحق فى وراثة الكونتية كلها من خلال هذا الزواج . كما تعهد رايموند السابع بمحاربة الألبجنزيين وتطهير البلاد منهم . وبالفعل فى سنة ١٢٣٣ نشر الكونت رايموند السابع قرارات تدين الألبجنزيين وتسمح لمحاكم التفتيش بممارسة نشاطها فى قلب أراضيه . حقيقة أن رايموند السابع كان يضمر بخلاف ما يظهر ، والدليل على ذلك أنه سعى إلى حلف مع الملك الإنجليزى هنرى الثالث ضد لويس التاسع الفرنسى ، ولكن لويس التاسع انتصر على الإنجليز فى موقعة سانت (Saintes) ، فتبخرت آمال رايموند السابع واضطر إلى السعى للصلح من جديد مع التاج الفرنسى سنة ١٢٤٢ .

وفى هذا الصلح الجديد تعهد رايموند بأن يساهم بطريقة إيجابية فى قمع الهرطقة فى بلاده . وبالفعل نحن نعلم أن رايموند السابع — فى عام وفاته (١٢٤٩) أمر بإحراق ثمانين من الألبجنزيين بتهمة الهرطقة عند بلدة آجين (Agén) . وبعد وفاة رايموند السابع آل أمر كونتية تولوز إلى الأمير الفرنسى دى بواتييه شقيق الملك الفرنسى وزوج ابنة رايموند السابع .

إن آداب هذه الحقبة من تاريخ العصور الوسطى تعكس سخطاً شديداً بين الأقوام على الكنيسة ومحاكم التفتيش ، ونسوق هنا مثالا واحد يعكس عمق هذا الغضب :

« هنا بعض يرفضون العماد
وهنالك نفر جدفوا رب العباد
وهذا « فلوار » يحيلهم إلى رماد
وتلك النار باتت تحرق الأجساد
وكم من رأس قطعت قبل ميعاد » ! [٤]

(٤) Floire et Blanceflor :
"Qui le bapteme refusoit,
Ne en Diu croire ne voloit,
Floire le faisoit escorchier,
Ardoir en fu ou destrenchier".
See Meyer, P., Débat d'Izarn et de Sicart de Figueiras, 1897, P. 233.

كان لويس التاسع أسوأ حاكم علمانى شجع على تثبيت أقدام محاكم التفتيش فى فرنسا لكى يرضى معاصريه من البابوات جريجورى التاسع وأنوسنت الرابع . وقد وكل مهمة التفتيش والمحاكمة إلى رهبان الدومنيكان ، الذين أرهبوا صغار القسيسين وبسطاء الناس بجبروتهم وبالتكشير عن أنيابهم ، وأرسلوا إلى المحرقة أعداداً لا تحصى بتهمة الهرطقة .

ويحدد المؤرخون سنة ١٢٣٣ على وجه التحديد كبداية لإرساء محاكم التفتيش فى فرنسا جميعاً . وقد شمل لويس التاسع ووالدته بلانش القشتالية مفتشى تلك المحاكم بالعطف والحماية. وقد خول الملك الفرنسى رجلا يدعى روبرت لى پتى (Robert le Petit) صلاحيات طائلة كمفتش عام . والغريب فى الأمر أن روبرت هذا كان فى الأصل عضواً فى جماعة الألبجنزيين ثم انقلب عليهم فيما بعد ، ولهذا فقد أطلق عليه المعاصرون كنية « لى بوجر » (le Bougre) أى « البلغارى » بمعنى « المانوى » أو « الألبجنزى » وقد أرهب هذا « البلغارى » أصقاع فرنسا ما بين عامى ١٢٣٣ — ١٢٣٩ ، والثابت عليه أنه قد شنق ١٨٣ نفساً دفعة واحدة فى مقاطعة شامپانى[٥] .

وفى عهد الملك الفرنسى فيليب الرابع « الجميل » (١٢٨٥ — ١٣١٤) ، قام صراع مرير بين التاج الفرنسى والبابوية على عهد بونيفاس الثامن (١٢٩٤ — ١٣٠٣) .

ويرجع ذلك إلى إصرار فيليب على جباية الضرائب من رجال الدين لمساعدته فى حروبه الكثيرة ضد أسبانيا وانجلترا . ولكن بونيفاس تصدى له فى حزم بالغ ورفض الموافقة على هذا « الابتزاز » . والحق أن بونيفاس كان ينحدر من عائلة جايتانى (Gaetani) الرومانية النبيلة ، ولم يكن الرجل يدخر وسعاً فى تأكيد نبالة عرقه ، واتبع فى ذلك مسلكاً متعجرفاً . ويقال أن بونيفاس قد وصل إلى العرش البابوى بطريقة دنيئة : فقد كان سلفه سلستين الخامس راهباً زاهداً فى متاع الدنيا ، ولكنه أجلس على كرسى البابوية رغم أنفه . ورفض سلستين أن يستقر فى روما ، وبقى فى مدينة نابلى . ولم يكن سلستين الزاهد راضياً عن مسلك وأطماع كرادلته فى مجلس الكيوريا ، ففكر جدياً فى التنحى عن منصب البابوية ومتاعها . ويروى أنه سمع هاتفاً سماوياً ينصحه بالتخلى عن منصب البابا والعودة إلى حياة النسك والتوحد . وحقيقة الأمر أن

(٥) See Fredericq, Robert le Bougre, Liege, 182. Passim.

هذا الصوت السماوى لم يكن سوى صوت الكاردينال بندكت جيتانى منبثاً من خلال أنبوبة خفية . وفى ١٣ ديسمبر ١٢٩٤ انصاع سلستين « للوحى الإلهى » واعتزل العرش . وبعد ذلك بعشرة أيام تسلق الكاردينال جيتانى إلى عرش البابوية باسم بونيفاس الثامن [٦] .

أصدر بونيفاس الثامن مرسوماً بابوياً سنة ١٢٩٦ بعنوان (Clericis laicos) يحرم فيه على الهيئات الدينية فى بلدان غرب أوربا دفع أية أموال للأمراء العلمانيين . وقد كان أول من غضب من هذا القرار الملك الفرنسى فيليب الرابع ، فقام بطرد التجار الإيطاليين من فرنسا ، الأمر الذى أدى إلى ارتباك الأحوال الاقتصادية فى إيطاليا .

وأشفع هذا القرار بقرار أهم وهو إيقاف تصدير الذهب والفضة إلى إيطاليا . وبذلك حرم بونيفاس الثامن من موارد مالية هائلة كان فى مسيس الحاجة إليها لمتابعة مغامراته العسكرية فى جزيرة صقلية .

واضطر البابا إلى التراجع فى موقفة من الملك فيليب ، وسمح له بحق جباية الضرائب من الهيئات الدينية فى فرنسا ، بل إنه سعياً وراء مداهنة التاج الفرنسى خلع لفظ « القديس » على لويس التاسع الملك الأسبق .

ولعل تراجع بونيفاس وخضوعه لسياسة فيليب يرجع إلى خلاف شديد كان بين البابا وبين الكرادلة من بيت كولونا (Colonna) .

ويرجع تمرد آل كولونا إلى مسلك بونيفاس المحابى لأقربائه وأيضاً بسبب تورطه فى السيمونية . فتصدى له الكاردينالان بترو وجياسپو من آل كولونا واتهماه بالفساد والطغيان والتآمر على البابا الأسبق سلستين .

وهنا لجأ بونيفاس الثامن إلى التقليد الذى ابتدعه من قبل أنوسنت الثالث ، فدعى

---

(٦) أغضب هذا التنحى الشاعر دانتى ، فوضع سلستين فى سجن على أعتاب الفردوس فى كوميدياه الإلهية لأنه لم يستسغ هذا الـ gran rifiuto من الراهب الطيب سلستين .

و بونيفاس الثامن هو الذى أكد على أن خليفة القديس بطرس — البابا — هو الوحيد الذى يملك الحل والربط ، ومن ثم فهو المتصرف فى صكوك الغفران . انظر الملاحق .

إلى حملة « صليبية » ضد بيت كولونا ، وهجم الجيش البابوى الصليبي على قلاع كولونا ودمروها ، حتى سويت كبرى القلاع فى بالسترينا (Palestrina) بالأرض (سنة ١٢٩٨) . وقع أبناء كولونا أذلاء عند قدمى البابا المنتصر ، وبعد قليل هربوا من وجهه يطوفون ببلدان فرنسا ، حيث أذاعوا عن بونيفاس فضائح مخجلة .

فى أثناء ذلك نشب صراع بين حزب السود وحزب البيض فى مدينة فلورنسا ، وكان السود أشياعاً للبابا فى حين أن البيض كانوا يناصرون الإمبراطور الألمانى ضده . وانتهز البابا وصول حملة الأمير الفرنسى شارل دى فالوا سنة ١٣٠١ إلى شمال إيطاليا فى طريقة للحرب ضد صقلية ، فطلب منه البابا تقليم أظافر البيض فى فلورنسا . وهجم شارل على فلورنسا ، وانقض السود على البيض ونهبوا أموالهم وأملاكهم ، وكان من بين الضحايا شاعرنا دانتى الذى أرسل إلى المنفى سنة ١٣٠٢ .

إلا أن تطور الأمور بعد ذلك قارب من الصدام بين التاج الفرنسى والبابا بونيفاس : فقد رأى فيليب الرابع أن يتخلص من أسقف باميه المدعو برنارد سيسيه (Saisset) ، فكتب إلى البابا يستأذنه فى خلع هذا الأسقف وتجريده من رتبته الكهنوتية حتى ينتقم منه بعد تجريده . ولكن بونيفاس رفض الانصياع لنزوات فيليب ، وقرر أن يلقى القفاز فى وجه خصمه . ولذلك فإنه فى سنة ١٣٠١ أصدر مرسوماً بابوياً بعنوان « سلامة العالم » (Salvator mundi) يلغى فيه جميع الامتيازات التى كان قد منحها من قبل للتاج الفرنسى . وأتبع هذا بقرار آخر بعنوان « طاعة الابن » (Ausculta filii) يبين فيه أخطاء فيليب فى مملكته ، متهماً إياه بالتمرد على رأس الكنيسة العالمية ، ومنذراً بأنه قد يضطر إلى وضعه فى عداد « المارقين » . ثم وجه بونيفاس الدعوة إلى كبار رجال الدين فى فرنسا للحضور إلى روما « لتدبير شئون فرنسا بما يليق » .

ورد فيليب الرابع على ذلك بأن عقد مجلساً فى باريس (سنة ١٣٠٢) من النبلاء والأساقفة ، وأعلن فيه رجال الدين الفرنسيون استقلال الملك عن كل وصاية بابوية ، كما ندد المؤتمرون بأطماع بونيفاس وجشعه .

وفى ١٨ نوفمبر ١٣٠٢ عقد البابا مجمعاً ثانياً حضره بعض الأساقفة من الجنوب الفرنسى ، وأصدر قراراً بعنوان « الواحدة الوحيدة المقدسة » (Unam Sanctam) ،

أكد فيه حق البابا فى « السيفين » : سيف السلطان الروحى وسيف السلطة الزمنية ، على أن يعهد البابا بالسيف الزمنى — كأمانة تحت وصايته — إلى أمراء الدنيا ، وأنه لا خلاص للملوك والأمراء إلا بهذه التبعية الروحية[٧] .

وقد علق الفرنسيون على هذا القرار بعبارة حفظها لهم التاريخ وهى تقول : « إن سيف صاحب الجلالة من الصلب ، وأما سيف البابا فهو من الكلام فحسب » . ويبدو أن هذا القول قد ترجم إلى واقع : فقد بعث فيليب بنفر من رجاله بقيادة وزيره وليم دى نوجارت (de Nogaret) إلى موطن البابا فى أنجنى (Anegni) واقتحموا عليه مقامه بعد أن فتح لهم كبير الحراس البوابة ، ووجدوا بونيفاس على فراشه يعد فى قرار للحرمان ضد الملك فيليب .

ولما أن رأى أعداءه صاح : « هاهو عنقى ، وتلك هى يداى ، أنا لست أخافكم » . وسرعان ماضجت البلدة بالهرج والفزع ، ففر الجناة تاركين البابا . وفرض آل أورسينى (Orsini) حمايتهم على البابا ، واصطحبوه معهم إلى روما ولكن بونيفاس الثامن توفى فى الطريق فى ١١ أكتوبر سنة ١٣٠٣ .

وبعد وفاته روج عنه الفرنسيون أقبح الصفات والرذائل واتهموه بجنون العظمة .

كان البابا الجديد بندكت التاسع شخصية ضعيفة من أبناء الدومنيكان ، فبادر بالعفو عن الملك الفرنسى فيليب الرابع . ولم يعش طويلا ، فلم يلبث أن توفى فجأة فى ٧ يوليو ١٣٠٤ .

وبعد وفاة بندكت التاسع انقسم الكرادلة إلى حزبين : حزب يشايع الملك الفرنسى ، وآخر تمسك بسياسة بونيفاس الثامن . وفى النهاية انتصر الحزب الموالى للتاج الفرنسى ، فرفعوا إلى العرش البابوى كبير أساقفة بوردو — برتراند دى جوت — باسم البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ — ١٣١٤) .

---

(٧) Denzinger, H., Enchiridion Symbolorum Definitionum et Declarationum, MCMXI, P. 206 : "In hac eiusque duos esse gladios, spiritualem videlicet et teporalem, evangelicis dictis instruimur... uterque ergo est in postestate Ecclesiae, spiritualis scilicet gladius et materialis. Sed is quidem pro Ecclesia, ille vero ab Ecclesia exercendus. Ille sacerdotis, is manu regnum et militum, sed ad nutum et patientiam sacerdotis. Oportet autem gladium esse sub gladio, et temporalem aúctori-tatem spirituali subici potestati..."

وكان البابا الجديد فرنسياً لحماً ودماً ، وقرر أمراً خطيراً : ألا وهو هجران روما والإقامة الدائمة في فرنسا . وبالفعل وصل البابا كلمنت الخامس وبلاطه في سنة ١٣٠٩ إلى بلدة أفنيون (Avignon) في الجنوب الفرنسي على ضفاف الرون ، وابتدأ بذلك الفترة الحرجة في تاريخ العصور الوسطى المعروفة باسم « الأسر البابلي » .

وكان جل كرادلة أفنيون من الفرنسيين بطبيعة الحال ، وكانوا وسيدهم البابا تحت وصاية فيليب الجميل .

كان بندكت أداة طيعة في يد الملك الفرنسي ووزيره الداهية نوجارت ، حتى بدت بابوية أفنيون مجرد دمية في أيدي الوزير . ولعل أخطر ما أقدم عليه فيليب في تلك الآونة هو إصراره على القضاء على جماعة الداوية (Templiers) من رهبان المعبد الذين لعبوا دوراً خطيراً في الحركة الصليبية في الأراضي المقدسة بفلسطين . كان الداوية قد عادوا إلى موطنهم فرنسا بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١ في أيدي السلطان الأشرف خليل بن قلاوون . وكانوا في الحقيقة قد جمعوا أموالا طائلة من مغامراتهم الصليبية حتى صاروا من أغنى الجماعات الدينية في فرنسا . ويقال أنهم قد استثمروا أموالهم أيضاً في عمليات الربا . وسال لعاب فيليب الجميل على أموال الداوية ، خاصة وأن الجماعة كانت تضم ألفين من خيرة الفرسان لا يخضعون للتاج الفرنسي . لجأ فيليب الرابع إلى أخس الأساليب فكلف وزيره نوجارت بتلفيق الاتهامات ضد جماعة الدواية كي يستصدر قراراً من البابا للقضاء عليهم تماماً ومصادرة أموالهم وأملاكهم . وفي سنة ١٣٠٧ كان الوزير نوجارت قد أعدّ قائمة بالاتهامات والأدلة الملفقة ضد جماعة الداوية . وبعث الملك بتلك القائمة إلى البابا كلمنت الخامس في بلدة بواتييه ، مع طلب بإصدار مرسوم بابوى بإدانة هذه الجماعة وإحلال مصادرة أملاكها .

ولما أن رقى نوجارت إلى وظيفة حامل أختام الملك ، صدرت إليه الأوامر بالقبض على كل أفراد الداوية وإيداعهم السجن (مايو ١٣٠٧) . ثم أذاع نوجارت الاتهامات الموجهة ضد الداوية ، فاتهموهم بالهرطقة وعبادة الشيطان والانحلال الخلقى والفجور . وتعرض الرهبان لصنوف من التعذيب داخل زنزاناتهم — تماماً كما كان يحدث في زنزانات محاكم التفتيش — إلى حد أن واحداً من أبناء الداوية عندما بلغ به العذاب

مداه صاح قائلا : « إننى على استعداد لأن اعترف لكم بأننى قد قتلت الله ، شريطة أن تكفوا عن تعذيبى وترحمونى من الإحراق بالنار » .

أما عن البابا كلمنت الخامس فقد رضخ لأهواء الملك فيليب ووزيره ، وأصدرت البابوية قراراً بمصادرة أملاك جماعة الداوية فى كل أنحاء العالم المسيحى . أما الداوية فقد أنكروا ما وجه إليهم من اتهامات أمام مندوبى البابا من المفتشين ، وسحبوا كل اعترافاتهم السابقة لأنها تمت من موقف الإرهاب والتعذيب . وكاد البابا أن يصدق مظالم الدومية ، إلا أن الملك الفرنسى قام بزيارة مفاجئة إلى بواتييه حيث كان البابا يقيم ، واضطر كلمنت الخامس إلى الذهاب مع التاج الفرنسى ضد الداوية إلى أبعد شوط . فأصدرت البابوية مرسوماً بإقامة محكمة تفتيش خاصة للتحقيق مع الداوية ولإدانتهم ، وذلك فى مجمع عقد ببلدة ڤين (Vienne) سنة ١٣١٠ . وفى نفس العام صدر حكم من محكمة التفتيش بإحراق ٦٣ راهباً من الداوية بتهمة الهرطقة . وضاعت صرخات الداوية وتأوهاتهم أدراج الرياح ، فقد صمت آذان البابا عن الرحمة وصوت العدالة . وفى سنة ١٣١٢ صدر قرار بحل النظام وإلغائه كلية .

ولكى تكتمل المأساة تماماً ، اقتيد رئيس الداوية جاك دى موليه (Jacques de Molei) وبعض رفاقه للمحاكمة سنة ١٣١٤ ، وتقرر إحراقهم جميعاً بالتهم الملفقة !

لقد كان « الأسر البابلى » فرصة لنشاط محاكم التفتيش فى غرب أوربا ، فمارس المفتشون تحت لواء « أفنيون » أفانين الإرهاب والقمع ، وكان حلف التاج الفرنسى مع الكاهن الأكبر وعمالة أمثال نوجارت أسود صفحة فى صفحات العصور الوسطى ضد حرية الفكر وإبداء الرأى فى أبسط الأمور . ومنذ ذلك التاريخ الأشأم صار تلفيق الاتهامات ونشر الفضائح الكاذبة والإرهاب سمة من أخص سمات الملكية الفرنسية حتى قيام الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩ .

وحتى جماعة الفرنسيسكان — وهم من أدوات البابوية أصلا — لم تنج من بطش محاكم التفتيش . فلقد نادى فريق منهم بضرورة الرجوع بالعقيدة إلى حياة البساطة الأولى . ولكن البابا يوحنا الثانى والعشرين (١٣١٦ — ١٣٣٤) قرر تقديم هذه الفئة إلى محاكم التفتيش سنة ١٣١٨ . وسار على منواله البابا بندكت الثانى عشر . واشهر

تلك الجماعات فريق فراتيشيللي (Fraticelli) فى نابلى ، اللذين بشروا بقرب حلول عهد الروح القدس حيث يعيش الكل فى محبة وبساطة ، فى احتقارلمتاع هذا العالم . ولكن البابا يوحنا الثانى والعشرين أدان هذه الأفكار ودمغها بالهرطقة .

وتابع البابوات من أفنيون إرهابهم للفكر بواسطة محاكم التفتيش . والواقع أن آراء الأطهار من أتباع والدو لم تنته تماماً من الجنوب الفرنسى رغم المذابح الرهيبة التى لحقت بهم ، كما انتشرت آراؤهم إلى بوهيميا وجنوب شرق ألمانيا .

أما فى البلقان ، فقد ظلت أفكار « الأطهار » فى البوسنية حتى وقت الغزو العثمانى ، وعندها دخل الأهلون الإسلام هروباً من اضطهاد الكنيسة لهم .

ولم يحل القمع الرهيب بين وصول آراء الأطهار وتمركزها فى بوهيميا ، حيث مهدت الطريق لحركة جون هس فى القرن الخامس عشر .

أما عن نشاط محاكم التفتيش فى ألمانيا ، فإن البابا أنوسنت الثالث قد أصدر أمرا سنة ١١٩٨ إلى أتبـــاع والدو فى بلدة متز (Metz) بتسليم كتبهم باللغات المحلية إلى السلطات الكنسية لإحراقها . وفشلت هذه الخطوة ، فأوفد البابا ثلاثة من رجاله نجحوا فى الحصول على بعض الكتب وقاموا بإحراقها . بعد ذلك ببضع سنين نشط الأسقف برتراند من متز فى حملة ترشيدية ضد آراء « الأطهار » من أتباع والدو ، ولكنه لم يجد آذاناً صاغية . وفى سنة ١٢١٣ اتهمت السلطات الكنسية جماعة الأطهار بالشيوعية فى العيش وفى ممارسة الجنس ، وقامت بشنق نفر منهم . وفى سنة ١٢٢٩ اتخذت إجراءات قمع أخرى ضد أفراد هذه الطائفة فى بلدة ستراسبورج .

ثم عين البابا جريجورى التاسع مفتشاً كنسيًّا عامًّا على ألمانيا هو كونراد من ماربورج (Marbourg)، وزوده بالصلاحيات اللازمة لشن حملة صليبية ضد الهراطقة الألمان[٨] . وفى رسالة من البابا جريجورى التاسع إلى كونراد هذا يعلن البابا أنه قد يأس من الحال التى تدنى إليها رجال الدين فى ألمانيا من فساد وفضائح ولذات حسية شهوية . إلا أن المفتش العام كونراد لم يتعقب غير الهراطقة فراح يقتلهم ، بينما لم يبد حراكاً ضد رجال الدين الفاسدين . والحق أن كونراد كان رجلا جباراً ، جرّ الآلاف

---

(٨) See Kaltner, B., Knorad von Marburg und die Inquisition in Deutschland, Prague, 1882. Passim.

من الأبرياء إلى المشنقة أو المحرقة ، وكان يكفى عنده أن يشى جار بجاره بتهمة الهرطقة ، فيجر أهل البيت جميعاً إلى المشانق . وقد ضج الناس من سياسة القمع التى اتبعها كونراد ، حتى أن بعض الأساقفة المعتدلين فى تريت وكولون نصحوا إليه بالاعتدال . ولكن رجلا من طراز كونراد لم يكن يعرف إلى الاعتدال أو التوسط سبيلا فذهب إلى نهاية الشوط .

وقد بلغ به الشطط أن اتهم بعض كبار رجال الدولة والنبلاء بالهرطقة على غير أساس ، ومن بين هؤلاء كان كونت ارنزبرج ، وكونت لوز (Looz) وكونت ساين (Sayn) فى أراضى تريف . إلا أن النبلاء المتهمين طلبوا من كبير أساقفة مينز أن يعقد مجلساً لفحص القضية معهم . وتدخل الملك الألمانى هنرى فى الأمر ، وقد فشل المفتش كونراد فى أن يبرز أدلة قاطعة تدين هؤلاء النبلاء المتهمين ، بل إن بعض شهود الإثبات ضدهم أعلنوا للمجلس أنهم قد أجبروا خوفاً من بطش كونراد على تلفيق الاتهامات ضد هؤلاء النبلاء .

وهاج المجمع ، وطالب بعض الأعضاء محاكمة كونراد المفتش نفسه . وقاطع كونراد المجمع ، وراح يبشر بحملة صليبية ضد « الهراطقة » ، فى شوارع مينز ، ولما أن أصيب بالفشل قفل راجعاً هو وزبانيته إلى مربورج . وعند أطراف البلدة هاجمه بعض النبلاء وأوقعوا به فى كمين نصبوه له (٣٠ يوليو ١٢٣٣) ، وتنفس الألمان الصعداء .

وفى سنة ١٢٤٨ نسمع عن نشاط « والدانى » (أتباع والدو) فى مرتفعات سوابيا وبساو (Passau) ، وقد بلغ عدد المدارس المجمعة لأبناء الوالدانيين فى بساو ٤١ مدرسة ، وكلهم من العمال والفلاحين .

وقد بلغ عدد الوالدانيين فى النمسا سنة ١٣١٥ قرابة ٨٠,٠٠٠ .

وفى سنة ١٣١٨ قام « الأطهار » باغتيال المفتش الدومنيكانى المدعو أرنولد عند بلدة كرمز (Krems) . غير أنه فى سنة ١٣٩٢ تم إحراق ٣٦ والدانى فى بلدة بنجن (Bingen) . وفى سنة ١٣٩٧ قبض على ألف من الوالدنيين وأودعوا السجن فى بلدة ستاير (Steyer) ، ثم تم شنق مائة منهم .

وقد عجزت محاكم التفتيش — رغم إرهابها ومذابحها — أمام الأطهار ، إلى حد أنها استنجدت بالفليسوف دون سكوتوس (Don Scotus) ليجادل كبارهم فى ألمانيا .

كذلك نشطت محاكم التفتيش فى ألمانيا ضد جماعتى « النسوة الطاهرات » (Beguins) و « الرجال الأطهار » (Beghardians) فى ألمانيا . وفى نفس الوقت تعرض رفاقهم فى باريس لأشنع أنواع الاضطهاد : فقد قبض على مارجريت بوريت (Porete) من هينولت وأحرقت حية . وتشردت جماعة « النسوة الطاهرات » فى باريس ، وألقى بالفتيات القانتات إلى قارعة الطريق من دور طهرهن .

وقيل إن عدداً من هؤلاء الفتيات قد اضطررن إلى احتراف البغاء لسد رمقهن .



الباب الرابع

مزامير الانتقام وزعماء الإصلاح



مزامير الانتقام وزعماء الإصلاح

لا ينكر أحد أن تعاليم والدو والأطهار والجماعات الأخرى التى سبق الحديث عنها قد مهدت الطريق نحو الإصلاح (Reformation) الدينى فى غرب أوربا . وقد بدأت حركة الإصلاح – دون جدال – بالأطهار وتقوت بروادهم جون ويكلف (Wyclif) الإنجليزى ، وجون هس (Huss) التشيكى ،، وساڤونا رولا فى إيطاليا ، ثم اكتملت الحركة بظهور مارتن لوثر فى ألمانيا ، وجون كالڤن (Calvin) فى فرنسا :

اتخذ جون ويكلف (Wiclif) اسمه من بلدة وكلف فى يوركشير ، وهى جزء من رتشموند التى كانت تحت سيطرة بيت لانكستر . حصل ويكلف على درجة الدكتوراه فى اللاهوت سنة ١٣٧٢ من كلية باليول بجامعة أكسفورد . وفى سنة ١٣٧٤ منحه التاج الإنجليزى قطعة أرض فى لتروورز (Lutterworth) كهبة من الملك إدوارد الثالث ، بعد أن سمع بشهرة ويكلف كرجل لاهوت متبحر . ثم أوفده إدوارد الثالث ضمن بعثة إلى بلدة بروج (Bruges) لمقابلة المندوبين البابويين لتسوية بعض الأمور المختلف عليها بين التاج الإنجليزى والبابوية . والواقع أن الملك الإنجليزى رفض أن يدفع الضريبة التى اعتادت إنجلترا على دفعها للخزانة البابوية منذ عهد الملك جون سنة ١٢١٥ . وقد فشلت البعثة فى مهمتها ، وعاد ويكلف إلى أكسفورد .

وفى رحاب أكسفورد عكف ويكلف على بحث قضية العصر ألا وهى العلاقة التى ينبغى أن تكون بين صاحب الجلالة والكاهن الأكبر .

ولعل أهم فكرة طرقها ويكلف هى مسألة الملكية (dominion) : والرأى عنده أن السيادة والملكية أصلا هى حق الخالق سبحانه وتعالى وحده . أما البشر – أمراء كانوا أم بابوات – فإنهم عندما يتصرفون فى هذه الملكية (الأرض) فإنهم يقومون بهذا بتكليف من السماء ، على أن تكون العدالة هى رائدهم فى ذلك . ويرى ويكلف أن جميع الأفراد فى أى مجتمع هم أصحاب حق طبيعى فى نصيب من هذا « الكرم السماوى » ، متمثلا فيما تغله أرض المسكونة من خيرات . ولقد كانت الأرض – كما يؤكد هذا المعلم – ملكاً مشاعاً بين

كافة الناس قبل السقطة الكبرى لآدم . إلا أن الخطيئة هى التى جلبت على العالم رذيلة الملكية الخاصة وتكالب بنى آدم على الأرض . ولا ينكر ويكلف على الكنيسة حقها فى أن تملك بعضاً من هذه الأرض ، على أن يتم هذا بموافقة الأمير أو الملك .

ولقد رحب نبلاء انجلترا بآراء ويكلف ، لأنهم فى حقيقة الأمر كانوا يتنمرون لابتلاع بعض الأراضى التابعة للكنيسة فى انجلترا ، خاصة وأن هذه الكنيسة كانت على درجة وافرة من الثراء .

وفى سنة ١٣٧٦ ، طلب من ويكلف الحضور إلى لندن لكى يشرح نظريته أمام المسئولين وبعض كبار رجال الدين الإنجليز . وهلل الوزراء والنبلاء لجرأة هذا اللاهوتى الحر . إلا أن الأسقف وليم كورتيناى انزعج من ذلك ، وطلب من ويكلف المثول أمامه لكى يناقشه .

وذهب ويكلف لملاقاة الأسقف ، وأصر دوق لانكستر — جون من غنت — أن يذهب مع ويكلف لحضور المقابلة . وكان أن انتهت المقابلة بمعركة صاخبة بين الأسقف من ناحية وبين ويكلف ودوق لانكستر من ناحية أخرى .

ثم بادر كبار رجال الدين فى انجلترا بإرسال أخبار عن نظرية ونشاط ويكلف إلى البلاط البابوى فى روما . وكان البابا جريجورى الحادى عشر ما فتىء أن عاد بعد أن تحرر من « الأسر البابلى » فى أفنيون إلى المدينة العتيدة . فأرسل إلى انجلترا يطلب القبض على ويكلف ومحاكمته بسبب آرائه المتطرفة .

وعندما وصلت رسالة البابا كان الملك إدوارد الثالث قد توفى ، وآل العرش إلى الطفل ريتشارد الثانى تحت وصاية والدته أميرة ويلز . وقد تكفلت الملكة الأم ببسط الحماية على ويكلف ، ولكن الأساقفة أصروا على أن يمتنع ويكلف عن الوعظ ونشر آرائه .

بعد هذه المرحلة ، أضاف ويكلف إلى نظريته أبعاداً أخرى خطيرة تتصل بجوهر العقيدة : فقد قال بأن الخبز والخمر على مائدة القربان الكنسى لا يتحولان بحال إلى جسد ودم المسيح . وإن كان للمسيح حلول فى سر التناول ، فإنما هو حلول روحانى

وليس بالحلول المادى . ونظراً لخطورة هذا الرأى ، انزعج الكثيرون فى إنجلترا ، وتراجع نفر من أتباع ويكلف نفسه . أما دوق لانكستر — وهو المدافع الأكبر عن ويكلف — فقد انزعج بدوره ، وراح يتنصل من صديقه اللاهوتى « المتهور » . ولما أن انفض القوم من حول ويكلف ، صار من السهل على الأسقف وليم كورتيناى أن يحصل على إدانة لآراء ويكلف ، وتم طرده من جامعة أكسفورد هو وأتباعه[1] .

وتوارى ويكلف فى أرضه عند لتروورز ، وتوفى فيها بعد سنوات قلائل .

وقد نادى ويكلف بعدة آراء أخرى ، من بينها إيمانه الشديد بالقدرية ؛ فالبعض قدر لهم الخلاص ، والبعض الآخر كتبت عليهم التهلكة ، وأن البابا — فى أغلب الظن — على رأس الفريق الثانى . والكنيسة ورجالها — عند ويكلف — مؤسسة مناققة لا يوجد ما يبرر وجودها ؛ لأن الصلة بين العبد وخالقه يمكن أن تتحدد بالاسترشاد بما ورد فى الكتب المقدسة ، دون الحاجة إلى تجار الدين والكهانة والأوصياء . ولذلك فإن ويكلف وتلاميذه قد عمدوا إلى اخراج ترجمات باللغة الإنجليزية للأناجيل ، حتى يتحرر الإنجليز من أغلال اللاتينية ، وحتى تصبح الكتب المقدسة فى متناول البسطاء من القوم بلغتهم التى يفهمونها .

وجدت آراء ويكلف صدى شعبياً كبيراً فى انجلترا ، وراح فريق ممن آمنوا بآرائه يطوفون أرجاء البلاد وينشرون هذه التعاليم .

وقد أطلق عليهم المعاصرون لقب « لولارد » (Lollards) ، إشارة إلى تشابه آرائهم مع آراء اللولارديين فى القارة — كما سبق وأشرنا إليهم . وتطورت اللولاردية فى انجلترا ، فصارت مذهب الكادحين والعمال والثوار على ظلم العصور الوسطى . ولذلك فإن الملك ريتشارد الثانى أمر بالقبض عليهم وإيداعهم السجون .

وفى عهد هنرى الرابع ، صدر قرار ملكى يحرم اللولاردية بالقانون ، وقدم نفر منهم للمحاكمة وأحرقوا بالنار . وسارت الأمور على هذا المنوال من القمع والإرهاب فى عهد الملك هنرى الخامس ، وفى سنة ١٤١٧ قبض على زعيمهم جون أولدكاست (Oldcaste) وأعدم !

---

(١) Errores Ioannis Wicleff. See Appendix.

انتقلت آراء ويكلف من انجلترا إلى القارة الأوربية فى نهاية القرن الرابع عشر : وتفصيل ذلك أن الأمير ونسزلاز (Wenceslas) أكبر أبناء الإمبراطور شارس الرابع ، الذى توج ملكاً على بوهيميا (١٣٧٨ – ١٤١٩) ، قد زوج أخته آن (Anne) من الملك الإنجليزى ريتشارد الثانى . وقد انتقل مع الأميرة آن عدد وافر من الدارسين للالتحاق بجامعات انجلترا وعلى رأسها جامعة أكسفورد .

وهنالك تعرف أبناء بوهيميا على آراء جون ويكلف . وفى سنة ١٤٠١ نقل جيروم من براغ تعاليم ويكلف برمّتها إلى بوهيميا .

والواقع أن الإمبراطور شارس الرابع كان قد أولى مملكة بوهيميا اهتماماً خاصًّا ، فأسس فيها سنة ١٣٤٧ جامعة براغ ، وسرعان ما غدت هذه الجامعة الفتية مركزاً علميًّا مرموقاً فى أوربا ، فغصت بالدارسين من مختلف البلدان : من بولندة وبفاريا وسكسونيا وبوهيميا. وقد أبدى أبناء تشيكوسلوفاكيا على وجه الخصوص تفوقاً واضحاً فى دراساتهم .

ولما أن راجت آراء جون ويكلف فى أروقة جامعة براغ ، انزعج المسئولون ، فقدموا توصية إلى مجلس الجامعة بضرورة إدانتها . وأدان المجلس هذه الآراء ، ولكن فريقاً من الدارسين ضرب برأى الجامعة عرض الحائط ، وكان على رأسهم المصلح جون هس .

ولد هس سنة ١٣٧٠ فى قرية هوزنك (Husinec) ، وحصل على درجتى الليسانس والماجستير فى ١٣٩٣ و ١٣٩٦ تباعاً . وكان هس شابًّا متحمساً لقضايا الإصلاح الكنسى ، كما كان واعظاً مفوهاً ، ومؤلفاً مجيداً للترانيم الدينية . وكانت جماعة من المتحمسين فى تشيكوسلوفاكيا قد أسست كنيسة فى براغ عرفت باسم « كنيسة بيت لحم » ، وكان الاهتمام فيها ينصب على التبشير بحياة البساطة المسيحية الأولى . وفى سنة ١٤٠٢ عين هس واعظاً لهذه الكنيسة .

نادى هس – كما نادى ويكلف من قبل – بأن قربان وخمر التناول لا يتحولان إلى جسد ودم السيد المسيح . كما أنه شدد على أن الكاهن الآثم لاحق له فى أن يقود الصلاة أو يؤدى مراسيم التناول (٢) . وقد لاقت تعاليم هس حماساً زائداً ، والواقع أن هذه المشاعر

(٢) Errores Ioannis Hus. See Appendix.

تعكس إحساسات الشعوب السلافية فى مقاومتها للعنصر الجرمانى الغالب عليها والمتحكم فى أمور سياساتها .

وقد جرت التقاليد فى جامعة براغ – عند الاقتراع على القرارات . أن تدلى كل طائفة من الطوائف الأربع من ممثلى جنسيات الطلاب بصوتها لاتخاذ القرار أو إبطاله . وكانت الغلبة دائماً للسكسون والبفاريين والألمان ضد أبناء وممثلى بوهيميا . وفى حين تعصب الألمان للكنيسة الرومانية ، تبنى البوهيميون قضية ويكلف وهس .

وكافح البوهيميون لتعديل لائحة الجامعة ، حتى تقرر لهم ثلاثة أصوات ، بينما بقى لجميع الطلاب الأجانب عن البلاد صوت واحد ، عند الاقتراع . وعند هذا التغير فى الأحوال ، أخذ الطلاب الألمان يهجرون جامعة براغ (سنة ١٤٠٩) ، وأسسوا لأنفسهم جامعة فى ليبزج . وارتاح أهالى بوهيميا من شغب الطلاب الألمان ، وأيضاً من جشع التجار الألمان الذين كانوا فى معية الطلاب من بنى جلدتهم .

ولما أن انتشرت آراء ويكلف وهس ، انزعجت البابوية ، فأرسل البابا اسكندر الخامس أمره إلى كبير أساقفة براغ يأمره بإحراق كتب ويكلف ، وبإرهاب أتباع جون هس . وقد قام كبير الأساقفة واسمه زبنيك (Zbynek) بتنفيذ أوامر البابا فى يوليو ١٤١٠ .

وقد ظهرت ردود الفعل ضد كبير الأساقفة فى كثير من أشعار الثوار ، من بينها قصيدة فى هجاء كبير الأساقفة زبنيك كتبت باللغة المحلية وتقول :

« إن نيران كبير الأساقفة زبنيك
هى جمر الشرف لأبناء التشيك »[٣]

وانعكست كراهية رجل الشارع للبابوية ورجلها فى براغ كبير الأساقفة فى أغنية شعبية تقول :

---

(٣) Palacky, Histoire de la nation tchéque, 1850, t. iii, 1, p. 100, note 166 :

"Zbynek knihy spalil
Zdenek je podpalil
ucinil haubu Cechorn
beda bude vsem nevernym popom."

« زبنيك أسقف يعرف القراءة
ولكنه مصر على إحراق الكتابة
بجهله بما تحويه من معان خلابة »[٤]

وفى سنة ١٤١٢ وقع البابا يوحنا الثالث والعشرين فى صدام مع لادزلاس ملك نابلى ، وقررت البابوية شن حرب « صليبية » ضد مملكة نابلى . ولكن البابوية كانت تحتاج إلى مال وفير لتمويل هذه الحملة الصليبية ، ومن ثم فإنها أقدمت على بدعة خطيرة فى تاريخ الكنيسة ؛ ألا وهى بيع « صكوك الغفران » لمسح كل الخطايا والآثام بالمال . واكتملت المهزلة البابوية بهذا القرار !

كان جون هس أول من ندد ببيع صكوك الغفران للآثمين ؛ لأن فراديس النعيم لا تورث بالرشوة والربح الحـــرام . وقال هذا المصلح إن دل هـــذا على شيء فهو إنما يشير إلى إفلاس البابوية ماديًّا بعد أن أفلست معنويًّا . وعندما التفت الجموع حول هذا المبشر الثائر ، أمسك بقرار البابا عن الغفران وأحرقه بالنار .

والواقع أن البابا يوحنا الثالث والعشرين كان واحداً من ثلاث بابوات يتكالبون للجلوس على عرش البابوية ، وقد رأى الناس فى مسلك الكهنة الثلاثة وفى نزاعهم وتكالبهم على المنصب وما يدره على جيوبهم من فضة وذهب صورة قميئة للكرسى الرسولى فى روما .

فى أثناء ذلك كان مجمع كنسى كبير ينعقد فى مدينة كونستانس لتدارس أمور الكنيسة الرومانية ولحسم النزاع بين البابوات الثلاثة المتناحرين . وقد وجه المؤتمرون أمراً إلى جون هس بالمثول أمام المجمع (نوفمبر ١٤١٤) . وكان الداعى إلى هذا المجمع أصلا الملك سجسموند ، وريث الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وكان حريصاً على إتمام الصلح بين البابوية وبين جون هس . وقد حث الملك سجسموند جون هس على الظهور أمام المؤتمر ، بعد أن أكد له الحفاظ على حياته وسلامته .

وقصد جون هس إلى المجتمع فى كونستانس ، ويشبه الكتاب هذا اللقاء بين جون هس وكرادلة روما وسيدهم يوحنا بمواجهة بين عالمين : العالم الوسيط وعالم الفجر الجديد .

(٤) ibid., "Zbynek biskup abeceda spalil kniahy, a nemeda. co je ne nich napsando".

حكم الكرادلة فى المجتمع بإدانة هس وبسجنه بسبب آرائه المهرطقة ، وألقى بالرجل فعلا فى السجن . ولكن الملك سجسموند ، بعد أن توج إمبراطوراً فى آخن ، هرع إلى كونستانس وأمر بإطلاق سراح هس من السجن . إلا أن الكرادلة ونفراً من أتباع سجسموند نصحوا له بالتخلى عن جون هس ، حفاظاً على سلامة المجتمع ووحدة العقيدة تحت لواء سيد الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وحذروه بأنه ليس من الحكمة أن يحطم كل شىء فى سبيل الحفاظ على حياة « هرطيق » . وانصاع سجسموند للناصحين ، وبقى جون هس فى السجن .

ولكن سجسموند بقى فى كونستانس يرقب أعمال المجمع عن كثب ، خاصة عندما طرحت قضية البابوات الثلاثة المتنازعين على كرسى روما . وهنا شعر البابا يوحنا الثالث والعشرين بأن أمره قد ينكشف ، ففكر فى حيلة ينسحب بها سرًّا من كونستانس حتى لا يواجه سجسموند ولا أعضاء المجمع من خصومه . فدبر يوحنا — بمعونة حليفه فردريك صاحب التيرول (Tyrol) حفل مبارزة فى كونستانس . ولما أن تجمع الأهلون حول هذه المبارزة للمشاهدة والهرج ، تنكر البابا يوحنا فى زى حارس للخيل وهرب إلى حصن شافهاوزن (Schaffhausen) التابع لبيت هابسبورج من أصدقائه .

وفى اليوم التالى اكتشف المجمع هروب يوحنا ، فساد الهرج فى ردهاته وأروقته ، وما لبثت شوارع المدينة أن اكتظت بالغوغائية ومظاهرات الساخطين . إلا أن الملك سجسموند بادر فقمع الفتنة بالسيف ، وأرسل جيشاً قبض على البابا يوحنا الثالث والعشرين وحليفه فردريك . واقتيد البابا ذليلا إلى مجمع كونستانس ، حيث استؤنفت الجلسات ، ثم قرر المجتمعون خلع يوحنا الثالث والعشرين (٢٩ مايو ١٤١٥) .

ثم استدعى جون هس من جديد لإعادة النظر فى قضيته . وكان الكرادلة فى المجمع قد دبروا له شركاً شيطانياً : فسألوه — أمام الإمبراطور سجسموند — عن رأيه فيمن يرتكب معصية من رجال الدين . فرد هس بأن هذا العاصى يستوجب العزل من منصبه الدينى . ثم سأله الكرادلة عن رأيه فيمن يرتكب نفس المعصية من الأمراء والملوك ، فرد الرجل بأن الملك العاصى أيضاً يستوجب الخلع عن العرش . وهنا شعر الملك سجسموند بحرج شديد أمام أعضاء المجمع ، وفتر حماسه لقضية جون هس ، وقرر أن يركله نهائياً .

وفى اليوم الثالث من المحاكمة ، أخذت الأصوات ، وكان الملك سجسموند أول من وافق على الحكم على جون هس بالإعدام !

واقتيد الرجل إلى بقعة عند أسوار المدينة وتم إحراقه فى ٦ يوليو ١٤١٥ .

على أن إحراق هس لم يحرق أفكاره الثورية ، فقد ظلت تعاليمه متأججة فى وجدان السلاف فى بوهيميا ، كما أن مشاعر القوم كانت تغلى بالغضب ضد الألمان وملكهم الغادر سجسموند . وتألف حزب من أتباع جون هس ، بزعامة واحد من أبناء موطن هس الأصلى اسمه نيقولا من هوزنيك وجون زسكا (John Ziska) الجندى المرموق[٥] . ثم ظهرت جماعة أخرى تدين بآراء هس وعرفت باسم « أبناء براغ » (سنة ١٤٢٠) وطالبوا بعدة إصلاحات كنسية أهمها :

١ ــ عدم قصر الوعظ على الكهنة .

٢ ــ التناول حق لجميع الناس .

٣ ــ طرد رجال الدين من الوظائف العلمانية .

٤ ــ تجريد رجال الدين من الملكية الخاصة .

٥ ــ خضوع رجال الدين للقانون العام .

ثم ظهرت فرقة أخرى أضافت إلى ما سبق من تعاليم ضرورة إزالة النظام الملكى واستبداله بحكم جمهورى .

ولم ينس أهل بوهيميا الموقف الخسيس الذى وقفه الملك سجسموند ضد زعيمهم جون هس فى مجمع كونستانس .

ولذلك فإنه عندما توفى ملك بوهيميا ونزل (Wenzel) سنة ١٤١٩ ، عين سجسموند شقيقه ملكاً على بوهيميا ، ولكن شعب بوهيميا أعلن الثورة ووقفوا ضد سجسموند وشقيقه . وهنا ضرب سجسموند حلفاً مع البابا مارتن الخامس (سنة ١٤٢٠) ، وبشر البابا بحملة صليبية

(٥) أوصى جون زسكا بنى جلدته بأن يصنعوا من جلده طبلة يدقون بها ناقوس اليقظة والثورة .

ضد أتباع هس فى بوهيميا ، وتألفت الحملات الصليبية لقمع أهالى بوهيميا، وكان قوامها من الفرسان الألمان .

ودارت الحرب بين الصليبيين الألمان وبين أهالى بوهيميا ، وأثبت القائد زسكا أنه جندى من الطراز الأول ، فقد زود عربات الأمتعة للمحاربيين البوهيميين بالمدافع ، فحدثت المعجزة وطوق أتباع هس الحملات الصليبية مرات ثلاث وطردوهم من بلادهم (١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، ١٤٢٢) .

وتوالت الحملات الصليبية على بوهيميا سنة ١٤٢٧ ولكنها جميعاً منيت بالفشل .

وأخيراً فى مجمع بازل المنعقد سنة ١٤٣٢ ، سوى الموقف بين أتباع جون هس وبين سجسموند والكنيسة الرومانية . وقد عرف هذا الاتفاق باسم Compactata : وبمؤداه سمح للعلمانيين بالقيام بالوعظ والتبشير ، ولكن سيام الكهنة بقى من حق السلطات الكنسية فقط ، كما احتفظ للأساقفة بمكانتهم القديمة فى الولاء والطاعة . إلا أن المجمع أقر محاكمة رجال الدين المذنبين ، على أن يكون هذا وفقاً للقانون الكنسى ، كذلك أبقى للكنيسة على حق الملكية الخاصة .

وغضب نفر من أتباع جون هس المخلصين على هذا الاتفاق ، فانقسم الحزب على نفسه ، ودارت بين الطرفين حرب أهلية مريرة ، انتصر فيها فريق مجمع بازل وأذل أتباع جون هس الراديكاليون فى سنة ١٤٣٤ فى موقعة ليبان Lspan .

ولكن أثر جون هس بقى ليفجر بعد ذلك مزامير الانتقام اللوثرية !

بعد أن التهمت نيران الكنيسة الرومانية جسد جون هس المصلح ، كانت نار أخرى تضرم فى شمال إيطاليا لابتلاع رائد آخر من رواد الإصلاح ألا وهو سافونا رولا :

والحق أن إيطاليا كانت أسبق الدول الأوربية سعياً إلى الانعتاق من ظلام العصور الوسطى وطغيان البابوية والتطلع إلى عصر فجر جديد .

ولقد ساهم فى ذلك السعى إلى التحرر تلك التقاليد الجمهورية للمدن الإيطالية الشمالية وحرصها على استقلالها ودساتيرها ، إلى جانب نقابات العمال والحرفيين التى نشأت بعد كفاح مزير ، وأخيراً بفضل انتعاش الأحوال الاقتصادية فى هذه المدن التجارية العريقة . وقد دأب أمراء تلك المدن على تشجيع الآداب والفنون والفلسفة ، كما وأنهم

رحبوا بعلماء بيزنطة الفارين من وجه الغزو العثمانى لبلادهم ، فنشر هؤلاء العلماء علومهم وأخذوا فى بعث الكلاسيكيات من الأكفان .

على أن إيطاليا ما أن أخذت بأساليب التحرر من عقلية العصور الوسطى لكى تأخذ بيد بلدان أوربا جميعاً فى غسل أدران التبربر والقنية والإقطاع والصليبيات ومحاكم التفتيش وإيجاد المصالحة بين حرية الفرد وحق المجتمع ، وحث الشباب على دراسة القانون والفلسفة وتذوق القيم الجمالية والاعتراف بقيمة الإنسان الفرد من حيث هو ، حتى قدر لها أن تنال جزاء سنمار ، فتمسى فريسة لضربات أولئك السادة الذين كانت تهم لقيادتهم — بالفكر — من دياجير الظلمة إلى نور النهضة !

كانت جمهوريات المدن الإيطالية تخضع لأسر نبيلة متعددة :

فكان آل مدتشى يحكمون فلورنسا ، وآل سفورزا فى جنوة ، وبيت بنتيفوجليو فى بولونا . وكذلك كانت الحال فى سيينا ولوكا وبقية المدائن . وكان يخفف من سطوة هؤلاء الحكام تلك النسمة الحرة فى تشجيعهم للفنون والآداب والعلوم وإحياء التراث القديم .

على أن أهم ما كان يقلق بال الإيطاليين جميعاً أنهم وجدوا أنفسهم محاطين فى نهاية القرن الخامس عشر بعدة قوى شرسة تتربص بهم شراً :

ففى فرنسا ، بعد أن نجح شارلس السابع فى طرد الإنجليز من بلاده ، ورث ابنه شارلس الثامن مملكة قوية آمنة غنية ، تملك جيشاً قوياً ، وخزانة مكتنزة بالمال . وكان شارل الثامن يحلم بتحقيق انتصارات للتاج على حساب الإيطاليين .

وفى أسبانيا ، بعد أن توحدت البلاد بزواج فردناند صاحب أراغون من إيزابيلا صاحبة قشتالة ، وبعد أن ضم الملكان إليهما أرض غرناطة ، أخذ التاج الإسبانى يتطلع إلى المغامرة فى القارة الأوربية ، أيضاً على حساب إيطاليا .

أما الإمبراطور مكسيميليان ، فإنه بعد أن وحد الأراضى الواطئة مع كونتية برغنديا — التى ورثها عن زوجته — إلى جانب النمسا ، راح يفصح عن أمله فى السيطرة على كل ألمانيا وإيطاليا ، ليبعث مجد شرلمان من جديد .

وفى نفس الوقت ، زحف النفوذ العثمانى على طول شواطىء الأدرياتيك ، وباتت البندقية ونابلى فى خطر داهم .

جاءت أول المتاعب من جانب الملك الفرنسى شارلس الثامن : فقد طالب بحقه فى وراثة بيت آنجو الفرنسى ، فى مملكة نابلى .

وقد كان شارلس الثامن ملكاً طموحاً حالماً ؛ فقد توهم أنه خليفة شرلمان ، وباعث مجد الفرنجة ، فخطط مشروعاً يهدف إلى غزو مملكة نابلى ، ثم الزحف لتحرير القسطنطينية من مخالب العثمانيين ، وأخيراً قيادة حملة صليبية إلى بيت المقدس ! !

هجم شارلس الثامن على إيطاليا فى أغسطس ١٤٩٤ على رأس ٣٦٠٠ فارساً ، و ٢٠,٠٠٠ من المشاة ، إلى جانب عدد وافر من رجال المدفعية . وفزع أهل المدن الإيطالية أمام هذا الجيش العرمرم ، ففتحوا للفاتح الفرنسى بواباتهم دون مقاومة ، ودانت سافوى ومونت فرات وميلان وجنوة . أما البندقية وفرارا فقد آثرتا الحياد ، وحذا حذوهما كل من فرارا ومانتوا .

أما المدن التوسكانية ودويلات الكنيسة الرومانية فى الوسط ومدن الجنوب الإيطالى ، فقد ألفت عصبة لمقاومة الغزو الفرنسى . كذلك قرر بيترو مدتشى — سيد فلورنسا — التصدى للغزو الفرنسى ، نظراً لما كان يربطه من محالفة مع مملكة نابلى ، وقد وقف إلى جانب فلورنسا مدينتا سينا ولوكا .

كان سيد روما فى ذلك الوقت البابا اسكندر السادس (بورجيا) سيء السيرة ، والذى كان على صلة نسب مع الفونسو ملك نابلى ، فقرر بدوره التصدى للغزو الفرنسى .

واستعد أمراء نابلى للقتال ، فعين الفونسو الثانى شقيقه فردريك قائداً للأسطول ، وشقيقه فرديناند قائداً للجيش البرى .

فى أثناء ذلك ، كان شارلس الثامن يزحف قبالة نابلى عبر جبال أبنين من طريق بارما إلى پولت ريمولى ، وهى منطقة جبلية مقفرة . وما أن وصل الجيش الفرنسى إلى بلدة سارزانا ، حتى قرر پيترو مدتشى الفلورنسى الخروج لملاقاة العدو .

وفى أول اشتباك بين الطرفين ، هلك ثلاثمائة من رجال فلورنسا ، وأسقط الأمير الفلورنسى فى يده . ولما أن اقتيد إلى مقام الملك الفرنسى انهارت أعصابه ، فوافق على

تسليم قلاع كل من سارانزا ، وسارزنللو ، ولبرافراتا ، وبيزا ، وبجهورن إلى العاهل الفرنسى . وبذلك توطدت أقدام الفرنسيين فى الأراضى التوسكانية .

إلا أن أهل فلورنسا شعروا بأن سيدهم المستبد قد ورطهم فى مأزق لم يكونوا نداً له ، ثم ها هو يعود إليهم منهزماً وذليلاً . وفى اليوم التالى لعودته الذليلة ، قصد بيترو مدتشى إلى دار الرئاسة ، ولكن الحراس لم يسمحوا له بالدخول إلى الدار ، فعاد إلى قصره محتمياً بصهره پاولو أورسينى .

وبمساعدة آل أورسينى ، طاف بيترو وشقيقه فى شوارع المدينة يصرخون صيحة الحرب الخاصة بالمدتشى لاستنفار أتباعهم للقتال . ودوت صرخة « پاللى پاللى » (Palle ! Palle) فى الميادين ، ولكن أحداً من الأهلين لم يتحرك .

فى أثناء ذلك كان حزب الأحرار (Piagnoni) فى فلورنسا بزعامة الراهب الفرانسيسكانى سافونا رولا ينظم المظاهرات ، منادية بسقوط آل مدتشى المستبدين . وخشى آل مدتشى على أرواحهم إن هم واجهوا الشعب الغاضب ، ففروا من بوابة سان جاللو ثم عبروا الأپنين إلى بولونا ، ومنها لاذوا بالبندقية . وبهذا الهروب الذليل ضاع على المدتشى سلطانهم على فلورنسا ، بعد حكم أبد دام ستين عاماً كاملة (١٩ نوفمبر ١٤٩٤) .

نجح شارلس الثامن فى الدخول إلى مملكة نابلى ظافراً ، وقام بإجراء عدة مذابح رهيبة لإدخال الرعب فى قلوب أشياع الفونسو الثانى .

ولكن سيطرة الفرنسيين على معظم أراضى إيطاليا بهذا اليسر ، حفز دوق البندقية سفورزا والبابوية ثم ملك أسبانيا والإمبراطور مكسميليان لمناهضة الفرنسيين . وتألف جيش كبير من هذه العناصر ووكلت القيادة إلى ماركيز بلدة مانتوا .

وكان شارلس الثامن — بعد غزوه لمملكة نابلى — قد قرر تعيين جلبرت دى مونبنسييه (de Montpensier) نائباً عنه فى نابلى على رأس نصف الجيش ، بينما تحرك الملك عائداً بالنصف الآخر . وفى طريق عودة الفرنسيين تصدى له الإيطاليون عند بلدة فورنوفو وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة ، واضطر شارلس الثامن إلى الهروب عبر جبال الألب منكسراً .

وهنا تشجع أهالى نابلى ، فهجموا على النائب الملكى الفرنسى جلبرت وأوقعوا به وبرجاله هزيمة عند بلدة أتيللا (Atella) (٢٣ يوليو ١٤٩٦) .

فى أثناء هذه الأحداث شهدت فلورنسا أحداثاً خطيرة ، فقد كان فى فلورنسا ثلاثة أحزاب : الأول كان يدعو إلى إصلاح الكنيسة وإقامة مجتمع يقوم على مبادىء الحرية والمحبة والمساواة ، وعرف هذا الحزب باسم « پيانونى » (Piagnoni) ، وكان على رأسه الراهب الثائر جيرولامو ساڤونا رولا (Girolamo Savonarola) .

أما الحزب الثانى فقد عرف باسم « آرابياتى » (Arabbiati) ، الذين كانوا فى الأصل شركاء لآل مدتشى فى الحكم ثم انقلبوا عليهم . وكان الحزب الثالث يعرف باسم « بيجى » (Bigi) ، وهو من أتباع آل مدتشى .

وقد نادى ساڤونا رولا بضرورة أن يتسع برلمان فلورنسا (Balia) لكى يمثل الشعب الفلورنسى جميعاً تمثيلا حقيقياً ، بدلا من أن يقتصر الرأى على الأحزاب الثلاثة المتناطحة . وقد استجاب الفلورنسيون لنصيحة ساڤونا ، وانتخبوا أول مجلس يمثل جميع فئات الشعب فى يوليو ١٤٩٥ ، وصار من حق المجلس الجديد انتخاب قضاة الشعب ، كما أعلن عفواً عاماً عن ضغائن الماضى بقصد المؤاخاة بين الفلورنسيين .

والواقع أن الراهب ساڤونا رولا كان يبشر بضرورة السلام الاجتماعى والمحبة واحترام حرية الفرد وفكره . وهو بعد هذا واحد من أهم دعاة الإصلاح الدينى الذين جاءوا قبل مارتن لوثر (قبله بعشرين عاماً فقط) ، فقد أكد برنامجه الإصلاحى إرساء كوادر أخلاقية لرجال الدين ، وحث على ضرورة اتباع تعاليم الكتاب المقدس . وكان ساڤونا شديد الإيمان برسالته ، إلى حد أنه اعتبر نفسه مبعوث العناية الإلهية لإنفاذ روح الإصلاح ، وهلل له أتباعه من حزب پيانونى .

إلا أن ساڤونا كان متعاطفاً هو ورجال حزبه مع الملك الفرنسى شارلس الثامن ، وذلك نكاية فى البابا الفاسد إسكندر السادس بورجيا وأصهاره فى مملكة نابلى ، الذين كانوا بؤر فساد فى جسم الكيان الإيطالى المتطلع إلى نظافة فجر جديد .

والحق أن البابا إسكندر السادس كان يتحين الفرص للقضاء على ساڤونا وحزبه بسبب هجومهم على مفاسده التى فاحت رائحتها فى كل جنبات أوربا ، فراح يتهم ساڤونا وحزبه بالخيانة ضد الوطن وبالتطاول على الكنيسة الأم . ثم أرسل البابا أوامره إلى فلورنسا بأن يمنع ساڤونا من الوعظ بسبب آرائه « المهرطقة » . وامتثل ساڤونا للأمر ، لعل العاصفة تمر بسلام ، وأناب عنه تلميذه بونوڤتشينو من برسكيا لأداء هذه المهمة .

على أنه فى عيد ميلاد سنة ١٤٩٧ إعتلى ساڤونا رولا المنبر فى كاتدرائية سان مارك ، وصاح بأن السماء قد طلبت إليه ألا ينصاع لأمر أرضى وألا يرضخ لحكم كاهن فاسد . ثم شارك فى سر التناول لعيد الميلاد وأخذ الموعظة على عاتقه . وحمل ساڤونا فى هذه الموعظة على البابوية ومفاسدها وألقى الأضواء على مخازى اسكندر السادس واتهمه بالانحلال والشذوذ والغدر والطغيان* .

ولكن اسكندر السادس حرض راهباً من زبانيته يدعى مويانودى جينا تزانو (Muiano di Ghinazzano) للتصدى لساڤونا رولا ومحاربته بنفس أسلحته . ثم أقام البابا راهباً آخر اسمه فرانسيس من أبوليا ليشهر بساڤونا فى كنيسة سانتا كروتشى (Santa Croce) . والحق أن فرانسيس هذا كان متحدثاً مفوهاً ومجادلا قديراً ؛ ففى أول كلمة ألقاها على جمهور كنيسته هاجم ساڤونا رولا معلناً الآتى : « أما عن نفسى فإننى واحد من خطاة هذا العالم ، ولست أدعى كما يدعى غيرى الإتيان بالمعجزات . على أننى رغم ضعف بشريتى أدعوكم لأن تقيموا تحكيماً بالنار أجتازه أنا وساڤونا رولا معاً .

وإنى على ثقة من أننى سوف أهلك بلهيب هذه النار ، ولكن ضميرى يدفعنى إلى هذا الكأس كى يهلك معى ساڤونا . وأنا أعرف طريقى ، ولكن ساڤونا طريقه إلى جهنم بسبب هرطقته ، ولأن أبرياء كثيرين قد سبقوه إلى النار بسبب تعاليمه الضالة[٦] .

ولكن ساڤونا رولا رفض قبول التحكيم بالنار فى بداية الأمر . وبعد إلحاح تلاميذه وأتباعه رضخ للأمر وقبل التحدى البابوى . وتحمس رهبان الفرنسيسكان والدومينكان لحدث الموسم ، وتقدم الآلاف من أهالى فلورنسا ، والأطفال والنساء يطلبون السماح لهم بمشاهدة هذا المشهد الخطير . ثم أعلن البابا إسكندر السادس موافقته على إجراء هذا التحكيم بالنار . ثم أصدرت دار السيادة الفلورنسية موافقتها على إقامة التحكيم ، وحدد له تاريخ ١٧ أبريل ١٤٩٨ .

وفى اليوم الموعود نصبت مشنقة مخيفة المنظر فى الميدان العام بالمدينة . ثم أقيمت كومتان من كتل الخشب مختلطة بأعواد من الحطب وسعف النخيل لكى تزيد النار ضراماً .

* See Portigliotti, op. cit., 69 ff.

(٦) See Sismondi, de, J.C.L., History of the Italian Republics, London, 1907, PP. 256 ff.

وامتدت الكومتان على مسافة بلغ طولها ٨٠ قدماً ، وسمك أخشابها ٤٠ قدماً ، وعلوها خمسة أقدام . وكانت المسافة التى تفصل بين خطى النار الملتهبين لا تزيد على قدمين اثنين ، كان على الراهبين المحتكمين إلى النار أن يمرا من خلالها والنار مشتعلة كالأتون من حولهما طوال الثمانين قدماً . ومن يخرج فى نهاية الطريق سليما فهو على صواب فى آرائه ، أما من تؤذيه النار فهو هرطيق آثم .

واكتظت البلدة بالمتفرجين ، وفتحت جميع النوافذ لمشاهدة هذا المنظر الرهيب . وحضرت جماعة الدومنيكان وهم ينشدون الترانيم الدينية . وسرعان ما وصل الفرنسيسكان من أتباع سافونا رولا للشد من أزره .

إلا أن خلافاً وقع بين رهبان الجماعتين : فبينما أصر الدومنيكان على أن يتناول بطلهم — فرانسيس من أبوليا — من القربان المقدس قبل اجتياز التحكيم بالنار ، رفض الفرنسيسكان ذلك المطلب . ومر الوقت دون أن يصل الطرفان إلى اتفاق حول هذه النقطة . وضاق الجمهور والمتفرجون ذرعاً بهذا الخلاف ، ومرت الساعات فاشتد بالناس العطش والجوع . وبعد أن نفذ صبرهم أخذوا فى الانصراف عن ساحة التحكيم . وبعد قليل هطل مطر غزير فأفسد أكوام الخشب المعدة للنار .

وأصيب الفلورنسيون بخيبة أمل مريرة ، لأن المعجزة التى كان سافونا رولا قد وعدهم بها لم تتم ، بل ظنوا أنها كانت مجرد خدعة بلهاء للاستخفاف بعقولهم . وسرعان ما فقد سافونا شعبيته ، وبات الفلورنسيون المتقلبون يتهمونه بالكذب والاحتيال ، وأن لا سبيل عنده على إتيان المعجزات .

لقد نجحت خطة البابا اسكندر السادس فى الوقيعة بين سافونا رولا وجمهوره . وبالفعل هجم نفر من حزب أرابياتا على الدير الذى كان يتوارى فيه سافونا وقبضوا عليه مع اثنين من أتباعه المخلصين ، وهما دومنيكو بونيوتشينو (Dominco Buonuicino) وسلفسترو ماروفى (Silvestro Mauruffi) ، وأودع الثلاثة السجن .

ثم هب الرعاع يقتلون كل من تقع عليه أيديهم من حزب سافونا رولا . وبادر البابا اسكندر السادس بإرسال أوامره لتقديم الرهبان الثلاثة للمحاكمة أمام محكمة التفتيش المؤلفة خصيصاً لهذا الغرض ، وقد زود البابا المفتشين الموفدين بضرورة إعدام سافونا

ورفيقيه . وفى المحاكمة تعرض الرهبان الثلاثة لإهانات بالغة ولتعذيب يفوق الوصف ، وحكم على ثلاثتهم بالإعدام حرقاً . وفى ٢٣ مايو ١٤٩٨ أحرق سافونا رولا ورفيقاه فى فى نفس البقعة التى كانت قد أعدت منذ ستة أسابيع لإظهار معجزاته الخارقة . وهكذا كتبت البابوية فصلا آخر من فصول المأساة الكبرى ضد مصلح عظيم وحر .

لم تكن المشنقة ولا كانت النار التى أحرقت الأطهار والثوار لتوقف تيار التاريخ . لقد تلقت البابوية صدمات عنيفة فاهتز عرشها ، ولكنها كانت جبارة فى إرهابها ، ظناً منها بأن الإرهاب والقمع قد يقضيان على الرأى الحر والمذهب المخالف . والغريب فى الأمر أن الضربة الكبرى التى قدر لها أن تصيب البابوية والكنيسة الرومانية لم تأت من يد علماء باريس أو أكسفورد من ذوى السمعة العلمية العريضة والمبادىء الحرة ، وإنما جاءت من ابن لفلاح بسيط فى ثورنجيا ، ذلكم هو مارتن لوثر سيد البروتستانت (١٤٨٣ — ١٥٤٦) .

وككل شخصية عملاقة فى التاريخ ، اختلف المفكرون فى تقييم لوثر : فالشاعر الألمانى جوته يرى أن لوثر قد تغافل عن جوهر الفكر الإنسانى ، واستمد ثورته من مشاعر الغوغاء فى أمور لاهوتية كان ينبغى أن تترك للمفكرين . ويرى ماتيو أرنولد فيه دجالا غوغائياً . أما الكردينال نيومان فإنه يرى فى اللوثرية حركة مكابرة ومخادعة جملة وتفصيلا .

أما غالبية المؤرخين فيرون فيه أخطر زعيم غير وجه التاريخ ونقل أوربا من العصور الوسطى إلى العصر الحديث .

دخل مارتن لوثر راهباً فى جماعة الأغسطينيين فى بلدة إرفورت فى الثانية والعشرين من عمره وذلك فى سنة ١٥٠٥ . وكان الشاب قد أصيب بشعور مرير من الذنب — لاندرى سببه — ففرض على نفسه نظاماً صارماً من الصيام والزهدا لإذلال جسده . غير أن هذه المذلة لم تنجح فى شفاء روحه أو إزاحة همومه الثقيلة ، وقد وصف لوثر هذه المرحلة من حياته فيما بعد بقوله : « لو أن راهباً قدر له أن يدخل النعيم بسبب تحقير جسده ، لكنت أنا أول الداخلين » . وفى فترة « الآلام » هذه تكشف للوثر أن السماء لو أنها رضيت عن هذا العذاب وعفت عنه ، لكانت كالشخص المستبد الذى يتلذذ بآلام الآخرين ويطلب من البشر ضروباً من من المستحيل . ولما أن رآه رئيس ديره — ستاوبتز (Staupitz) — على تلك الحال من

اليأس والقنوط والاكتئاب ، نصح له بإعادة قراءة الكتاب المقدس ، وخص بالاهتمام رسائل القديس بولس ، وكتاب « مدينة الله » للقديس أغسطينوس .

وانكب لوثر على القراءة بنفس شهية ، ووجد فيما قرأه ما يريح نفسه المؤرقة ، وبدأ دفء الإيمان يدب فى وجدانه . فهتف بأن الإيمان هو درب السعادة ، وأن الرحمة الإلهية هى شفاء الخاطئين . وأيقن لوثر من تجربته الروحية أن التوبة لا تتأتى بإيقاع العقاب على الآثم ، وإنما هى تتم عندما يتحرك شغاف القلب من الداخل لنسمة الرحمة السماوية . والغفران — على هذا — لا يمكن أن يشترى أو يباع ، لأنه منة السماء لأهل الأرض « من أبينا الذى فى السموات » .

ومن خلال بحوثه فى تلك المرحلة اكتشف لوثر أن كلمة « التوبة » (Penitentia) اللاتينية تعنى أصلا فى اللسان اليونانى شيئاً آخر ؛ فهى "metania" التى تعنى تغيراً فى نبض القلب بفعل حرارة الندم المخلص والتشوق إلى الخلاص الربانى . ومن ثم فإن ما تروجه الكنيسة الرومانية من عقاب بدنى وروحى ومن طقوس ، كلها أمور غريبة عن روح الدين السليم . واقتنع لوثر من هذا المنطلق بأن الشخص الخاطىء يمكن له — إن هو أراد — « أن يتبرأ ويتبرر من خطيئته بالإيمان — وبالإيمان وحده يخلص البشر » .

وفى سنة ١٥٠٨ طلب رئيس الدير من لوثر أن يضطلع بالتدريس فى جامعة وتنبرج ، التى كان الأمير السكسونى فردريك الحكيم قد أسسها منذ فترة قليلة . وأقبل الطلاب على لوثر فى حماس زائد ، وذاعت شهرة الرجل .

وفى سنة ١٥١٠ قام لوثر بزيارة لروما ، وفى المدينة البابوية ازداد اقتناعه بعبث الطقوس الكنسية ، واشتد غضبه على الجالس على عرش بطرس ، « ممسكاً فى يد « بالحرمان » وفى الأخرى « باللعنة » . فتش لوثر فى الفاتيكان عن خيط الإيمان فلم يجد له أثراً يذكر . وقفل عائداً إلى بلاده وهو يتمتم بأن لا خلاص إلا من الداخل .

ولما عاد لوثر إلى جامعة وتنبرج فوجئ بوجود مندوب بابوى من جماعة الدومينكان إسمه تتزال (Tetzal) يبيع صكوك الغفران (Indulgence) لمن يتبرع بالمال لبناء كنيسة القديس بطرس فى روما . واشتد غضب الرجل ضد هذا الاتجار بالدين ، واستاء من ابتزاز أموال البسطاء بهذه الطريقة التى لا ترضى السماء .

كتب لوثر مقالة من ٩٥ نقطة هاجم فيها « صكوك الغفران » ، وتحدى من يجادله فى الأمر فى حوار علنى (١٧ أكتوبر ١٥١٧) .

والحق أن لوثر لم يكن أول من هاجم صكوك الغفران ، فقد سبقه إلى ذلك كثيرون من أمثال الكردينال اكزمنيس (Ximenes) . وفى هذه المرحلة بالذات لم يفكر لوثر فى التمرد ضد الكنيسة الرومانية .

وبادرت السلطات الكنسية فدعت إلى عقد مجلس الدياط فى أوجزبرج سنة ١٥١٨ لطرح قضية لوثر ، واحتدم النزاع بين المندوبين البابويين تتزل وكوجتين من ناحية وبين المتحمسين لتعاليم لوثر من ناحية أخرى . وفى النهاية قرر الدياط أن يسحب لوثر كلامه عن صكوك الغفران ، وأن يلزم الصمت فى هذا الموضوع * .

إلا أن القضية سرعان ما تفجرت من جديد، ولم تعد المسألة قضية صكوك الغفران ، بل انتقل الجدل إلى السلطة البابوية نفسها وإلى نظام الكنيسة بشكل عام .

وقد بلور لوثر آراء سابقيه من معارضى الكنيسة الرومانية ، فلقد تأثر بتعاليم جون هس وجون ويزل وغيرهما من الرواد السابقين .

وقد وجد لوثر تأييداً كبيراً لحملته الإصلاحية ضد الكنيسة الرومانية ، ونشطت أقلام كثيرة تشد من أزره وتصفق له ، ومن بين هذه الأقلام قلم واحد من مشاهير الساخرين هو أولرخ فون هوتن (Ulrich von Hutten) الذى نشر سنة ١٥١٩ مقالة قال فيها : « إن روما تعتمد فى كرامتها على ثلاثة أشياء : سلطة البابا ، وعظام القديسين ، وصكوك الغفران . إن هنالك ثلاثة أشياء تخشاها روما ، وهى المجتمع الكنسى العام ، ولفظة الإصلاح ، ثم يقظة الشعب الألمانى . وهنالك ثلاثة أشياء تحرمها روما وهى الزهد ، وبساطة المسيحية الأولى ، وكلمة الحق » .

وفى سنة ١٥٢٠ نشر لوثر « رسالة إلى النبالة المسيحية فى الأمة الألمانية » ، ثم اتبعها برسالة أخرى بعنوان « الأسر البابلى » ، وفى الرسالتين أنكر لوثر سلطان البابا على الكنيسة ، وندد بسر الكهنوت ، ثم استبعد فكرة تحول القربان إلى جسد ودم السيد المسيح[٧] .

---

* Atkinson, J., Martin Luther and the Birth of Protestantism, 1968, Passim.

(٧) Errores Martini Luther. See Appendix.

بادرت الكنيسة فأصدرت قراراً بالحرمان ضد مارتن لوثر فى يوليو ١٥٢٠ . ولكن لوثر أعلن أن هذا القرار تافه وباطل وأن كاتبه ليس برجل دين وإنما هو المسيخ الدجال ، (Antichrist) ، ثم تناول قرار الحرمان وأحرقه بالنار علناً أمام جماهير غفيرة فى بلدة وتنبرج .

وهكذا أشعل لوثر عاصفة مروعة فى ألمانيا ، قدر لها أن تقتلع الكنيسة الرومانية من جذورها ، وبدأ عصر « المعارضين والمحتجين » (Protestants) ، وعرف العالم مذهباً مسيحياً جديداً سرعان ما وجد قبولا مذهلا فى بلدان غرب أوربا .

دعا البابا ليو العاشر الامبراطور شارلس الخامس إلى عقد مجلس الدياط فى مدينة ورمز للنظر فى قضية لوثر . إلا أن الأمبراطور ورجاله المقربين كانوا يدركون مدى ما تتمتع به آراء مارتن لوثر من شعبية لدى الشعب الألمانى وأيضاً لدى كبار المفكرين والأحرار فى غرب أوربا . ويتضح هذا التأييد الذى كانت اللوثرية تتمتع به من شهادة أليااندر (Aleander) المندوب البابوى إلى ألمانيا عندما قال بأن تسعة أعشار ألمانيا يهتفون للوثر ، أما العشر الباق — وإن كان لا يهتم باللوثرية — إلا أنه يهتف بسقوط الكيوريا البابوية .

رأى المجتمعون فى دياط ورمز استدعاء لوثر للدفاع عن نفسه ، وقد احتج البابا على ذلك ، ولكن الإمبراطور أصر على ظهور الثائر الألمانى أمام المجلس . وجاء لوثر وكان صلباً شامخاً فى دفاعه عن قضيته ، وراح يتحدى البابوية والكنيسة الرومانية والإمبراطور شارلس نفسه ، وأعلن مدوياً بأن «لاسلطان لبشر على فيما يتصل بكلمة الله وكتبه المقدسة » . وانزعج الإمبراطور ، وقرر المجلس إصدار قرار بالحرمان ضد لوثر وإحراق كتبه ومقالاته بسبب « ما فيها من هرطقة »[٨] .

هرب لوثر إلى قلعة وارتبورج فى سكسونيا تظله حماية الأمير فردريك الحكيم .

كان الإمبراطور شارلس الخامس مشغولا فى حروبه فى أسبانيا ، حيث أمضى سبع سنوات (من ١٥٢٢ إلى ١٥٢٩) .

وفى أثناء غيابه عن ألمانيا ، انعقد مجلس الدياط من جديد فى نورمبرج (نوفمبر ١٥٢٢) للنظر فى القضية اللوثرية ، ولكن غالبية الأعضاء كانوا متعاطفين مع لوثر . ولذلك فإن

---

(٨) أعلن لوثر فى حزم أنه لن يتراجع أبداً فى موقفه ضد مفاسد الكنيسة بعبارة :
"Ich kann nicht anders".

المجلس لم يتخذ أى قرار ضد لوثر ، ولم يعبأ حتى بالنظر فى تنفيذ قرارات ورمز السابقة ضده .

انتشرت آراء لوثر فى كل بلدان غرب أوربا ، وتهلل المعارضون للكنيسة الرومانية ومفاسد البابوية فرحاً ، وراح الأحرار يجاهرون بآرائهم علانية دون خوف من الإرهاب والقمع . إلا أن محاكم التفتيش كانت تضرب بيد من حديد خوفاً على مصيرها الذى بات مهدداً فى كل مكان . من ذلك ما قامت به محكمة التفتيش فى بروكسل سنة ١٥٢٣ ، فقد أحرقت راهبين من جماعة أغسطين ومن رواد الفكر اللوثرى فى الأراضى الواطئة . وقد حزن لوثر حزناً شديداً على هذا الجرم ، وانفعل وجدانه فكتب ضد محاكم التفتيش ما عرفه التاريخ باسم « مزامير الانتقام » وفيها يقول لوثر :

« إن رماد أجسادهم لن يبرد أبداً
الريح ستحمله من صعيد إلى صعيد
هوذا الصيف يطل علينا من بعيد
وبرد الشتاء ولّى والجليـــد
براعم الأزهار تفتحت تهنئ بالعيد
من تعهد ملهباً استشهد به وهو سعيد
كلمة الحق تلوح مؤزرة بالعهد الجديد .
آمين »[٩] .

طالب لوثر برفع وصاية الكنيسة الرومانية عن أعناق الناس وأرواحهم ، وأن يسمح لرجال الدين بالزواج ، وأن تقام القداسات باللغات المحلية بدلا من اللاتينية ، وأن يكون للمجامع الكنسية سلطة البابا كاملة .

وبينما كانت المجادلات على قدم وساق فى غرب أوربا ، كان الإمبراطور شارلس الخامس فى حرب ضد الملك الفرنسى فرانسيس الأول حول مدينة ميلان . وقد انتصرت جيوش شارلس على الفرنسيين فى موقعة حاسمة عند بافيا (١٥٢٤) .

---

(٩) "Ein neus Lied wir haben an !"...

في أثناء ذلك اشتعلت الثورة فى ألمانيا ، فقد هب الفلاحون للانقضاض على السادة الإقطاعيين وتحطيم قلاعهم لتصفية ضغائن العصور الوسطى بين القنية والنبالة الظالمة ؛ وكان الفلاحون الألمان قد هللوا فرحاً باللوثرية ومعارضتها لمظالم الكنيسة ، ودخلوا تحت لوائها لأن الأساقفة وكبارهم كانوا أشر أمراء الإقطاع ظلماً للفلاحين ، كما أن الكنيسة الألمانية كانت تجبى ضريبة العشور منهم بالقسر ، وكانت المحاكم الأسقفية تمثل رعباً للمزارعين ، لأنها تلوح لهم بتهديدات اللعنة والحرمان والإحراق بالنار .

لقد وجد الفلاحون فى تعاليم لوثر شفاء لضغائنهم القديمة ، وتحريراً لهم من قيود وأغلال الإكليروس الممقوت ، فشايعوا البروتستانتية دون تردد . وأذكت اللوثرية فى الألمان الشعور بالقومية الألمانية .

اندلعت ثورة الفلاحين أول الأمر فى المناطق الشرقية من الراين والدانوب (مايو ١٥٢٤) ، وطالب الثوار بإلغاء ضريبة العشور ، وبضرورة إعطائهم الحق فى انتخاب رجال الدين ، كما ألحوا على حرية الصيد فى الأنهار والغابات التى كانت حكراً للسادة النبلاء ، وطالبوا أيضاً بتخفيض التزامات القن (Serf) الذى قصم ظهره بالأعباء الإقطاعية* .

وانتشرت الثورة فعمت معظم أرجاء ألمانيا ، وظهر للثوار زعيم هو توماس مونزر (Münzer) الذى اتخذ من بلدة ملهاوزن (Mülhausen) قلعة لمعسكراته .

وطالب مونزر بإعادة النظر فى نظام الكنيسة والدولة من جذورهما. وهجم الفلاحون الثوار على قلاع وقصور السادة وكبار الأساقفة ، فقتلوا البعض وطردوا البعض الآخر . إلا أن الغريب فى الأمر أن الطبقة الوسطى ، وعلى رأسها المصلح الثائر مارتن لوثر ، قد تنكرت لهذه الثورة الاجتماعية ، والتى كانت بمثابة العمود الفقرى للوثرية . على أنه إنصافاً للحق ينبغى القول بأن مارتن لوثر قد طلب إلى الفلاحين التحلى بالاعتدال ونبذ أساليب العنف ، كما أنه نصح للسادة بأن يعطوا الفلاحين نصيبهم فى حقوقهم الآدمية .

ولكن أعمال العنف التى اقترنت بهذه الثورة أغضبت لوثر فتخلى عن قضية الفلاحين

---

* Atkinson, op. cit., loc. cit.

محاكم التفتيش

تماماً ، بل أنه أعلن أن الدين وإن كان يحرر روح الإنسان الفرد — غنياً كان أو فقيراً — إلا أن نظام حياته المادية ينبغي أن يصاغ وفق مفهوم النظام وقانون الدولة . وأدان لوثر الثوار فى عنف بالغ ، بل طالب السلطات الألمانية بأن « تطعن وتقتل وتشنق المشاغبين بكل عنف » .

نظم السادة جيوشهم وانقضوا على الفلاحين عند بلدة ليبهايم (Leipheim) ، ثم زحف فيليب من هيس (Hesse) على الثوار وقطع دابرهم عند بلدة فرانكنهاوزن (Frankenhausen) . وأخيراً أوقع بالزعيم مونزر أسيراً ، فاقتيد إلى المشنقة وتم إعدامه فى بلدة موطهاوزن . وتبع ذلك مذبحة رهيبة ضد الفلاحين وذويهم .

ثم دخلت اللوثرية فى صراع مرير ضد الكنيسة والإمبراطور شارلس الخامس ، ولم يقدر لها أن تفرض نفسها على ألمانيا إلا فى سنه ١٥٥٥ فى دياط أو جزبرج ، أى بعد وفاة لوثر بقرابة عشر سنوات .

وقد حمل لواء البروتستانتية بعد ذلك المصلح الفرنسى كالفن — (Calvin) .

الباب الخامس

كأس الأحزان



كأس الأحزان

حمل لواء اللوثرية والبروتستانتية بعد مارتن لوثر مصلح آخر هو جون كالفن : ولد كالفن فى بلدة نويون (Noyon) فى إقليم بيكاردى بفرنسا سنة ١٥٠٩ . وانخرط فى السلك الديرانى فى الثانية عشرة من عمره ، ثم سافر إلى أورليانز ليدرس القانون (١٥٢٩ – ١٥٣١) . وفى أثناء دراسته عكف على تفهم التعاليم اللوثرية على يد أستاذ مرموق هو جاك لى فيفر (Jacques Lefevre) ، الذى يعتبر أب البروتستانتية الفرنسية . ولما أن شنت السلطات الفرنسية موجة من الاضطهاد ضد البروتستانت فى فرنسا على عهد الملك فرانسيس الأول ، هرب كالفن إلى مدينة بازل (Basle) فى سويسرا . وهناك أخرج كالفن مؤلفه الهام بعنوان « النظم » (Institutes) ، الذى يحوى المبادىء الدينية لجماعته والتى وصل إليها بعد دراسة مستفيضة . . ثم انتقل إلى جنيف ، حيث طلب منه واحد من كبار رجال الفكر اسمه وليم فرال دى دوفنى ، الذى كان قد نفى من فرنسا بسبب تبشيره بالمبادىء اللوثرية ، أن يقوم بالتبشير بالمبادىء الجديدة التى وصل إليها من خلال بحوثه واقتناعه .

والواقع أن كالفن كان مصلحاً متشدداً فى تطبيق تعاليمه : فلقد فرض على جميع أتباعه ضرورة المواظبة على حضور الصلوات فى الكنيسة ، وعلى كل منهم أن يشارك فى « العشاء الربانى » . كما حرم عليهم ارتداء الملابس المزخرفة والخليعة ، ومنعهم عن الرقص فى الأفراح والأعياد . ومن يخالف هذه التعاليم يعرض نفسه لعقاب رادع وفق القانون . أما جريمة الزنا فيعاقبها أتباع كالفن بعقوبة الإعدام ، وأما الابن العاق على والديه فتقطع رأسه .

والحق أن كثيرين قد ضاقوا بتزمت كالفن وعنف تعاليمه ، ولذلك فإن بعض الأنصار المشفقين على روح المذهب الجديد ألفوا جماعة عرفت باسم (Libertines) سعت إلى التخفيف من صرامة الكالفنية ورهبتها على نفوس المصلين . ورغم هذا فإن آراء كالفن كانت عاملا هاماً من عوامل تثبيت أقدام اللوثرية فى بلدان غرب أوربا . فقد ثبتت كل آراء لوثر الإصلاحية ضد الكنيسة الرومانية وعملت جاهدة على التبشير بها . فى أثناء ذلك كانت تعاليم لوثر وجون كالفن قد وصلت إلى الأراضى الواطئة . وكانت هذه تتكون من

١٧ مقاطعة ، آلت بالمصاهرة إلى أسرة هابسبورج ، ثم إلى الإمبراطور شارلس الخامس . وشعب هذه البلاد خليط من الهولنديين فى الشمال الشرقى ومن الفلمنك فى مناطق برابانت (Barabant) ، ومن الوالون (Walloon) والجرمان فى الجنوب والغرب .

وقد درج الإمبراطور شارلس الخامس على إنابة حكم هذه المقاطعات إلى أميرات من البيت المالك ، فكانت عمته مارجريت من سافوى نائبة عنه من ١٥٠٦ إلى ١٥٣٠ ، ثم جاءت بعدها أخته مارى المنغارية من ١٥٣٠ إلى ١٥٥٥ . وكانت للبلاد جمعية عمومية من رجال الدين والنبلاء الكبار .

ولما أن انتشرت تعاليم كالفن فى هذه المقاطعات ، قرر شارلس الخامس قمع هذه التعاليم واستئصال شأفة البروتستانتية منها تماماً ، فأصدر فى سنة ١٥٥٠ قراراً (Placard) يدين بالهرطقة كل من يردد تعاليم كالفن أو يجتهد فى تغيير الكتاب المقدس أو يحطم الأيقونات . وكان العقاب يتمثل فى الشنق والإحراق بالنار .

ثم عين الإمبراطور مفتشاً كنسياً عاماً مطلق السلطة لقمع كل معارضة للكثلكة . إلا أن الشعب قد ثار ، واضطر المفتش العام إلى الفرار من الأراضى الواطئة .

وفى سنة ١٥٥٥ أناب شارلس الخامس ابنه فيليب الثانى فى حكم الأراضى الواطئة . وكان فيليب شاباً متعجرفاً خشن الطبع يكره أهالى الأراضى الواطئة ويحتقر الفلمنكيين على وجه الخصوص . ولذا فإنه قد أناب عنه فى حكم تلك البلاد أختاً له غير شقيقة هى مارجريت ، التى كانت امرأة مسترجلة خشنة الصوت والمظهر .

كان شعب الأراضى الواطئة ينظر بعين الغضب إلى الفرق الأسبانية التابعة لفيليب الثانى ، والتى كانت ترابط بالبلاد ، إذ كان الجند الأسبان عبئاً ثقيلا على مالية البلاد ، واستفزازاً لمشاعرهم الوطنية .

وغلت مشاعر الفلمنكيين فى جمعيتهم العامة ، وكان على رأس المتذمرين وليم دوق أورانج ، الذى كان يدين بالمذهب البروتستانتى . وقد بعثت المعارضة إلى فيليب تطالبه بالإصلاح فى حكم البلاد ، وبضمان حريات الأفراد والتخفيف من طغيان محاكم التفتيش ، وزيادة تمثيل الوطنيين فى الجمعية العامة بالبلاد .

ولكن فيليب رفض هذه المطالب ، فأرسل قراراً يهدد فيه بالتنكيل بالمتمردين ، خاصة فيما يتصل بأمر محاكم التفتيش .

وأمام هذا الموقف المتعنت ، تآخى أهل البلاد الواطئة من بروتستانت وكاثوليك ، وأصدروا وثيقة عرفت باسم « إعلان التراضى » ، شجبوا فيها محاكم التفتيش ، وطالبوا بأن يخول للجمعية العامة كامل صلاحياتها البرلمانية ، ثم طالبو من النائبة الإمبراطورية مارجريت أن تخاطب الإمبراطور لتنفيذ هذه المطالب .

غير أن فيليب ، بدلا من أن يستجيب لهذه المطالب ، أرسل وزيراً متطرفاً اسمه ألفا (Alva) لكى يقلم أظافر الموقعين على الوثيقة السابقة .

فى خلال ذلك قامت مظاهرات صاخبة فى فلاندرز ، وحطم الثوار جميع الأيقونات فى أربعمائة من كنائس البلاد ، كما نهبت كاتدرائية أنتورب من كل كنوزها ونفائسها : وقد غضب الكاثوليك من أهل البلاد من مسلك أتباع كالڤن ، فتنكروا لميثاق التراضى الذى كانوا قد وقعوه معهم من قبل وهجروهم وحدهم فى الميدان . أما النائبة الإمبراطورية مارجريت فإنها استنفرت الفرق الأسبانية وقامت بقمع الثوار بالشنق وبالنار .

عندما تفاقم الموقف إلى هذا الحد ، هرب الزعيم وليم أورانج إلى ألمانيا خوفاً من بطش فيليب الثانى به . ثم وصل الوزير ألفا إلى الأراضى الواطئة . والمعروف أن دوق ألفا هذا كان قد قاد كتائب الإمبراطور شارلس الخامس من قبل ضد اللوثريين فى بلدة موالبرج (Mühlberg) واستأصل شأفتهم ، ثم مال على الإيطاليين بعد ذلك فأصلاهم بالحديد والنار . وقد قيل عنه أنه كلما تقدم فى العمر ، ازداد طبعه حدة وشراسة .

جاء دوق ألفا على رأس عشرة آلاف من قدامى المحاربين الأسبان لكى يقلم أظافر الفلمنكيين والهولنديين . وانتشر الجند الأسبان يقبضون على رؤوس المعارضة وأتباع كالڤن . ثم ألف ألفا محكمة خاصة لمحاكمة المقبوض عليهم باسم « مجلس صاحب الجلالة » ، وقد أطلق عليها المعاصرون فيما بعد اسم « مجلس الدم » نظراً لشدة بطشها بالمتهمين . وكانت هذه المحكمة تتألف من ١٢ عضواً ، بينما كان قرار الحكم فيها وقفاً على ثلاثة من الأسبان هم جوان دى ڤار جاس، ودل ريو، ولاتورى (Juan de Vargas, Del Rio, La Torre) وكان دوق ألفا يتصدر بنفسه رئاسة هذه المحكمة وجلساتها . وفى حالة غياب ألفا ، كان يترأس جلسات المحكمة المفتش الأسبانى جوان دى ڤارجاس، الذى عرف بسوء السيرة والخسة، فقد قيل إنه قد اغتصب فتاة كان وصياً عليها ذات يوم ، كما وأنه كان يغفو فى النوم أثناء جلسات المحكمة ، وعندما يستيقظ فجأة من غفوته يصيح قائلا : « اشنقوهم جميعاً » .

وتعنتت هذه المحكمة فى تقتيل وإحراق أتباع كالفن ، كما كانت تضع فى اعتبارها الأول مصادرة أملاك المتهمين حتى تدخل الأموال الوفيرة إلى خزانة الإمبراطور لتمول حملاته العسكرية فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا .

ويعترف دون ألفا أنه قد قام بإعدام ١٨,٦٠٠ نفساً فى الأراضى الواطئة أثناء إقامته بها . وكان المثل الفلمنكى السائر فى تلك الأيام الصعبة : « إن الدار قد تنهار على أذن أهل الدار خوفاً من ألفا » .

أمام هذا الإرهاب ، اضطر الكثيرون من أهالى البلاد إلى الهجرة عن الوطن ، فقد بلغ عدد من هاجروا من الهولنديين والفلمنك إلى انجلترا ٦٠,٠٠٠ ، وهاجر عدد مماثل إلى ألمانيا .

وفى سنة ١٥٦٨ كان وليم أورانج وشقيقه لويس قد جمعا جيشاً من الهاربين لمقاومة البطش الأسبانى بالبلاد الواطئة . وتشجع النبلاء فقاموا بالثورة ضد دوق ألفا : ومن هؤلاء النبلاء الثوار كان هوجستراتن (Hoogstraten) فى برابانت ، وكوكشيل فى آرتوا ، ثم لويس دى نساو (de Nassau) . وألحق النبلاء الهزيمة بإحدى الفرق الأسبانية عند بلدة هيلنجرلى (Heiligerlee) فى ٢٣ مايو ١٥٦٨ .

ونتيجة لهذه الهزيمة، قرر دوق ألفا أن ينتقم من النبلاء فأعدم رؤوس الثورة : كونت إجمونت وكونت هورن (Hoorne) ، وقد تم الإعدام فى ميدان السوق فى بروكسل فى ٥ يونية ١٥٦٨ . ثم صودرت أملاك هؤلاء النبلاء وغيرهم وضمت إلى أملاك التاج الأسبانى .

أما الكونت لويس صاحب نساو فإنه فوجىء بجيش بقيادة ألفا نفسه يهجم على بلاده ، وهزم الكونت عند بلدة جمنجن (Jemmingen) فى ٢١ يوليو ١٥٦٨ .

فى أثناء تلك الأحداث كان الزعيم وليم أورانج يحاول التدخل لنجدة النبلاء الهولنديين والفلمنك ضد بطش ألفا ، وظل يصارع حتى تم اغتياله سنة ١٥٨٤ .

ولكى يذل ألفا أهالى البلاد الواطئة فرض على الجميع ضريبة على الممتلكات الثابتة والمنقولة ، وكانت تمثل عبئاً ثقيلا على كاهل جميع الطبقات . وفى سنة ١٥٧٠ ضرب إعصار مدمر أرجاء البلاد ، فدمر السدود وأغرق الأرض ، فأقفرت المقاطعات وتشرد

الكثيرون ، وفقد العمال مورد أرزاقهم . ثم لجأ عدد كبير منهم إلى عرض البحار يرتزقون من القرصنة ضد السفن التجارية للعدو الأسبانى .

وظل الصراع مريراً بين الأراضى الواطئة وأسبانيا ، وسارع الهولنديون والفلمنكيون للمحاربة فى صف الإنجليز والفرنسيين عندما شنوا الحرب ضد الأسبان ، حتى تم صلح وستفاليا (١٦٤٨) واضطرت أسبانيا إلى الاعتراف بالاستقلال لسبع من ولايات الأراضى المنخفضة هى جولدرلاند ، أوترخت ، فريزلاند ، أوفريسل ، جرونجين ، زيلاند ، ثم هولندة .

* * *

أما عن نشاط محاكم التفتيش فى أسبانيا ، فقد اضطلع به رهبان الدومنيكان فى بداية الأمر . وقد اتخذت محاكم التفتيش مقراً لها فى أشبيلية ، ومع أن هذه المحاكم كانت خاضعة للتاج الأسبانى ، إلا أن المفتش العام كان يخضع عند تعيينه لموافقة البابا [1] .

ولقد قاوم الإسبان هذا الإرهاب الكنسى : فقامت ثورة فى قرطبة وأيدها بعض النبلاء ومجلس البلدية ، واضطرت السلطات إلى نقل المفتش العام . ثم اندلعت ثورات مشابهة فى أراغون وفالنسيا وقطالونيا ، أما فى سرقوسة فقد اغتيل المفتش العام فى قلب كاتدرائية البلدة .

ويرجع قيام كل هذه الثورات إلى شعور الأسبان بأن « الهرطقة » صارت «دمغة» يدان بها الناس لأجل مصادرة أملاكهم وضمها إلى خزانة الملك ، وأدرك الشعب الأسبانى منذ البدء أن التاج والكنيسة قد تآمرا ضد الشعب الآمن تحت قناع الدين .

واستمر التعاون بين التاج والبابوية إلى أن جاء الملك فيليب الثانى — وريث شارل الخامس — (١٥٥١ — ١٥٦٠م) ، الذى تحرش بمملكة نابلى وبجزيرة صقلية ، فتصدى له البابا بولس الرابع (كارافا Caraffa) ، الذى كان أصلا من مواطنى نابلى . وراح كارافا يصب جام غضبه على الملك الأسبانى ، معلناً أن أسبانيا إن هى إلا مخلب قلو لليهود ، وهم نفاية شعوب الأرض ، وأنه ينبغى تطهير تربة إيطاليا الطاهرة من دنس

---

(١) Hume, M.A.S., Spain, its Greatness and Decay, (1479 - 1788), Cambridge, 1913, PP. 18.

الأسبان . ومضى كارافا شوطاً بعيداً فى عداوته للأسبان وملكهم فيليب ، إلى حد أنه طلب العون من السلطان العثمانى سليمان ضد فيليب . وأخيراً أصدر البابا قراراً بالحرمان ضد الملك الأسبانى موجهاً إليه أبلغ الإهانات ، على أنه « فيليب النمساوى ، ابن الضلال ، المتحدر من إمبراطور مزعوم ، الذى اغتصب عرش أسبانيا ، والذى ينشر الفساد فى ربوع أوربا مثل الشياطين » .

وعقدت البابوية حلفاً مع فرنسا ، ودخل الحلفاء حرباً ضد أسبانيا وحليفتها انجلترا ، وبعد عدة تحرشات ، توسط دوق البندقية فى الأمر ، وتم الصلح بين البابا بولس الرابع وبين الملك فيليب الثانى .

كان فيليب يرى ضرورة تأمين موقفه بإقامة حلف مع انجلترا ، ولذا فإنه سافر إلى انجلترا فى ٢٠ مارس ١٥٥٧ ، وتزوج هناك من الملكة مارى . وقد نتج عن هذه المصاهرة أن دخلت انجلترا الحرب ضد العدو المشترك — فرنسا — فى ٧ يوليو ١٥٥٧ .

غير أن حادثاً خطيراً وقع فى أسبانيا ، وكاد أن يعرض مركز فيليب لخطر داهم : ففى أثناء إقامته فى بروكسل ليتابع سير القتال بين قواته وحلفائه الانجليز من جهة ، وبين الفرنسيين من جهة أخرى ، قام بتعيين كاهن اعترافه بورتيليو دى كارانزا فى منصب كبير الأساقفة على طليطلة . وكان كارانزا معروفاً بعلمه وقوة بيانه ، وكان قد سافر إلى انجلترا حيث دخل فى حوار مفتوح مع دعاة حركة الإصلاح من الإنجليز . ولما أن وصل إلى طليطلة ، راحت الشبهات تروج من حوله ، وصعدت دوائر محاكم التفتيش تلك الإشاعات عنه ، يعاونها فى ذلك خصمه فالديز كبير أساقفة أشبيلية ، الذى كان يحقد على الأول لأنه منح أغنى أسقفية فى أسبانيا كلها . وبالفعل هاجم رجال التفتيش كارانزا فى مخدعه وجروه إلى السجن فى بلدة فالادوليد ، ووجهوا إليه تهمة بالهرطقة والتحريف فى مسائل اللاهوت .

وحكم على كارانزا أمام محاكم التفتيش بالنفى عن منصبه وبإعلان التوبة والندم .

شعر الملك فيليب الثانى أنه قد أهين على يد محاكم التفتيش ، فسعى إلى طيها تحت ذراعيه بالدهاء والخديعة : فبعد أن عاد إلى أسبانيا (٨ سبتمبر ١٥٥٩) بأسابيع قلائل ، قصد إلى الشرفة الملكية المطلة على ميدان كنيسة سان مارتن فى بلدة فالا-دوليد ، فأطل على الجماهير الأسبانية وأقسم لهم بأنه سوف يجعل نقاوة العقيدة الكاثوليكية هدفه الأول

فى الحكم ، كما وأنه لن يدخر جهداً فى تثبيت دعائم محاكم التفتيش « المكتب المقدس » . ثم أمر بأن يستعرض المتهمون الهراطقة أمامه للسخرية منهم . وكان من بين تعساء هذا الموكب أحد النبلاء المتهمين بالهرطقة واسمه دون كارلوس دى سيسا ، وقد شوه رجال التفتيش أطراف الرجل ووجهه بالنار حتى أصيب بالشلل ، فلما أن وصل الرجل إلى شرفة صاحب الجلالة صرخ نحو فيليب يقول : « إنى أتوسل إليك يا صاحب الجلالة ، توسل رجل من أصل نبيل إلى سيد عريق فى النبالة ، أن تسأل هؤلاء السادة عن الذنب الذى اقترفته حتى ألقى العذاب هل هذه الشاكلة تحت سمعك وبصرك » .

إلا أن الملك فيليب رد عليه قائلا : « لو كان ابنى ذاته منحرفاً فى العقيدة على شاكلتك لقمت بنفسى لحمل الوقود إلى المحرقة التى يلقى إليها »[٢] .

وتدليلا على حرص فيليب الثانى على محاكم التفتيش أمر بأن يحرق نفر من الهراطقة فى « المحرقة » (Auto da fé) فى حضوره شخصياً . وبهذه الجريمة الكبرى نجح فيليب فى أن يبسط نفوذه بدهاء على محاكم التفتيش ورجالها فى أسبانيا .

ضج الشعب الأسبانى من طغيان محاكم التفتيش ، وتذمر أهالى قشتالة ، فوجه إليهم فيليب الثانى رسالة فى فبراير ١٥٦٣ يعبر فيها أن « المكتب المقدس » باق كى يستأصل شأفة الهرطقة من طول البلاد وعرضها . كذلك ثار أهالى أراغون لأن محاكم التفتيش باتت تحشر أنفها فى أمور لا تمس الدين من قريب أو بعيد ، كما أن الرهبان قد استمرأوا فى شهادات الزور ضد الأبرياء . ولكن كل هذا لم يحرك ضمير فيليب الثانى . ولدينا رسالة من السفير الفرنسى فى أسبانيا موجهة إلى كاثرين دى مدتشى يصرح فيها بأن فيليب الثانى قد نجح فى استخدام محاكم التفتيش أداة طيعة لفرض إرادته على الشعب الأسبانى بالقهر[٣] .

بعد هذا جاءت الشكوى فى أسبانيا ضد محاكم التفتيش من رجال الكنيسة الأسبانية نفسها ، فقد استبد المفتشون بأمور العقيدة وخلعوا على أنفسهم صلاحيات باتت تهدد حتى كبار الأساقفة . ولذلك فإن القضية برمتها طرحت أمام مجمع ترنت[٤] . وكان

(٢) Hume, op. cit., p. 130.

(٣) Ibid., P. 142.

(٤) Froude, J.A., Lectures on the Council of Trent, London, 1914. passim.

الوفدان الفرنسي والألماني يميلان إلى ضرورة إدخال بعض الإصلاحات في نظام الكنيسة حفاظاً على وحدة العالم المسيحي في أوربا ومن أجل مهادنة البروتستانت ، ومن بين الإصلاحات التي طرحت السماح للكهنة بالزواج وتخفيف وطأة محاكم التفتيش عن كواهل الناس . إلا أن مندوبي فيليب الثاني وعلى رأسهم ڤارجاس حذروا البابا بيوس الرابع من المساس بمحاكم التفتيش . وقيل أن البابا قد صرح غاضباً بأن ملوك أسبانيا « يريدون أيضاً أن يكونوا بابوات » .

وإذا وصلنا إلى عهد الملك فيليب الرابع (١٦٢١ – ١٦٦٥) ، نجده شاباً منحلا خليعاً ، يقضي جل أوقاته في اللهو والمجون في ساحات مدريد أو في قصره الجديد في في ضواحي المدينة في بوين رتيرو (Buen Retiro) . وكان طبيعياً أن تنشط محاكم التفتيش في هذا الجو الداعر . ومن متناقضات الساعة أن ظهرت في ظل هذه المحاكم « المقدسة » جماعة أسبانية راحت تشجع الناس على الفجور والجنس المشاع والعلني حتى في داخل الكنائس وفي البيوتات الرهبانية أيضاً . وقيل إن الوزير أوليڤارس (Olivares) قد ساعد بنفوذه على إنشاء هذه الجماعة التي عرفت باسم « ألمبارادوس » (Alumbrados) أي « المتنورين » ليساير صاحب الجلالة في فجوره ونزواته .

وكان فيليب الرابع قد تزوج من أميرة فرنسية فاتنة هي اليزابث ، وقد حاولت إيقاظ زوجها من وحل الفساد الذي غرق فيه حتى أذنيه ، ولكن دون جدوى . وباتت العلاقة بين الملك والملكة علاقة حقد وكراهية ، تفضحها الواقعية التالية :

ففي أول حلقة من مصارعة الثيران في بلازا مايورسنة ١٦٢١ ، ظهر في الحلبة شاب نبيل وسيم هو كونت دى ڤيللا ميديانا ، الذى كان متمرساً في مصارعة الثيران . وكان هذا الشاب نبيلا جريئاً ، وقد زين صدره بحروف من الفضة في نقش يقول :

"Son mis amores" . وكان الملك والملكة يشاهدان هذه المصارعة ، والعبارة المنقوشة على صدر الشاب النبيل تعني بالأسبانية « إني أحب المال » . وقد بلغت الجرأة بهذا الشاب أن ألقى بنظرات إعجاب وغزل على عيون صاحبة الجلالة الملكة وهي في المقصورة الملكية بجوار زوجها . وفسر الجمهور الأسباني تلك النظرات بتفسير آخر للعبارة المنقوشة على صدره بأنها تعني « إن حبي هو حب الملوك » ، إذ أن العبارة في نصها الأسباني تحتمل كلا التأويلين .

وقد ساء الموقف عندما عاد الملك والملكة إلى القصر ، وهتفت الملكة بأن الكونت المصارع « كان يصوب رمحه فى روعة بالغة » . فرد الملك غاضباً : « ولكنه ياسيدتى يصوب إلى المقام العالى »[٥] .

وبعد شهور قلائل (أغسطس ١٦٢٢) تم اغتيال هذا الكونت عند مدخل قصره بيد واحد من رجال الحرس الملكى ، بتحريض مفضوح من الملك فيليب الرابع .

وفى عهد الملك شارلس الثانى وهو آخر ملوك أسبانيا من أصل نمساوى (١٦٦٥ — ١٧٠٠) تدهور حال البلاد وضج الناس من غلاء الأسعار وقرب المجاعة . وكان طبيعيًّا فى ظل هذا التدهور أن يزداد رجال محاكم التفتيش بطشاً بالشعب : فى سنة ١٦٨٠ أقيمت المحرقات (aote de fe) فى البلازا مايور فى مدريد فى حضور الملك والملكة . وبعد أن استعرض ١٥٠ من « الهراطقة » ، تم احراق عشرين منهم فى حريق بلغ ارتفاعه سبعة أقدام وكانت مساحته ستين قدماً . ولما أن بلغ الأسى مداه ، هبت ثورة فى مدريد سنة ١٦٩٩ ، وزحف الشعب على قصر الملك يصرخون : « نريد أن نقابل الملك » . ولما أن ردت عليهم الملكة بأنه نائم فى فراشه ، صاح الثوار : « لقد نام الملك وغط فى نومه بما فيه الكفاية ، وآن له الأوان أن يستيقظ من غفوته » . والواقع أن الملك كان يحتضر فى فراش الموت ، ورغم هذا فقد طلب أن يحمل إلى الشرفة ليهدىء من غضبة الجماهير .

وتحدث أمين سر الملك بنيفنتى إلى الشعب الغاضب معلناً أن الملك غير غاضب على الشعب بسبب سخطه ، ولكن تخفيض أسعار الخبز ليس فى يديه ، وإنما الأمر كله فى يد الوزير أوربسا (Orpessa) .

وفهم القوم مدلول الإشارة الملكية ، فهجموا على الوزير ، الذى انسل هارباً خارج البلاد .

كان شارلس الثانى قد تنبه فى أواخر سنى حكمه إلى خطر محاكم التفتيش ، التى باتت تمثل دولة داخل الدولة الأسبانية . ولهذا فإنه عندما ساءت حالة الملك الصحية تماماً ، همس بعض أعوان المحاكم فى أذن الملكة بأن الملك يعانى من السحر الأسود الذى دبره له

(٥) Hume, op. cit., P. 249 :
"The Queen : "Villa Mediana aimed well".
The King : "Ah! but he aims too high."

« الهراطقة » . وصدقت الملكة الرواية ، وطلبت إلى محاكم التفتيش أن تتدخل فى الأمر لإنقاذ صحة صاحب الجلالة ! !

ظلت محاكم التفتيش سوطاً مسلطاً على الأسبان فى عهد الملك فيليب الخامس (١٧٠٠ — ١٧٥٩) ، ففى عهده أدين ١٤,٠٠٠ بالهرطقة ، وأحرق منهم ٧٨٢[١] .

وباعتلاء الملك شارلس الثالث العرش الأسبانى (١٧٥٩—١٧٨٨) ، بدا وكأن أسبانيا تبعث إلى الوجود من بين رماد العصور الوسطى ومحاكم التفتيش .

فقد كان شارلس الثالث على علاقة طيبة بفرنسا ، وفتح الملك ذراعيه لمفاهيم عصر التنوير والحرية التى كانت ارهاصاتها على قدم وساق فى باريس !

ولذلك فإن الملك قد عين وزيراً مستنيراً هو آراندا (Aranda) فى عام ١٧٦٦ لإصلاح ما أفسدته قرون العصور الوسطى .

كان الوزير آراندا ينظر إلى أملاك الكنيسة الأسبانية وثرواتها الفاحشة بعين الازدراء ، ولذلك فإنه فى عام ١٧٦٧ أصدر قراراً مفاجئاً بطرد جماعة الجزويت من أراضى أسبانيا ، على ألا يحملوا معهم شيئاً سوى أمتعتهم الشخصية . ثم قام بترحيلهم إلى الموانى وبلغ عدد المرحلين من الجزويت ستة آلاف دفعة واحدة .

ولما أن غضبت البابوية من هذا الإجراء ضد الجزويت ، كتب إليه الملك الأسبانى بأن هذا الإجراء لا يعدو أن يكون إجراء اقتصادياً لصالح فقراء الإسبان . ورد البابا بقوله « إن طرد الجزويت إنما هو آخر قطرة فى كأس الأحزان » .

وقد عهد شارلس الثالث إلى وزيره آراندا وإلى تابع آخر اسمه أولافيد بإنفاذ برنامج إصلاحى ينجى البلاد من التهلكة : وتم توزيع بعض الأراضى على فقراء الأسبان ، وتم استيراد كميات من القمح لبيعها بأسعار زهيدة للجياع . وأصلحت العملة وانتظمت السجلات العقارية ، واستقدم الخبراء من القارة الأوربية للأخذ بيد الصناعة ، وشقت القنوات وجففت المستنقعات ، وانتظمت الخدمة البريدية ، وأنشئت قرى نموذجية فى صحراء سيرا مورينا بعد أن كانت أوكاراً للمتشردين واللصوص . وانتظم الأمن واستقامت

---

(١) Lea, C.H., op. cit., IV, P. 524.

آداب الطريق ، وازدهر التعليم — على الأسس التى وضعها الجزويت بعد علمنتها وتطويرها — لتتواكب وروح العصر الجديد .

ثم صدرت الأوامر إلى محاكم التفتيش — وكانت قد شاخت بفعل الزمن — بأن زمانها قد ولى إلى غير رجعة ، وبأن الحكم فى كل القضايا غدا من حق المحاكم المدنية فقط (أبريل ١٧٧٤) .

ولما أن حاولت محاكم التفتيش أن تستجمع قوتها التى شاخت ، لتضرب الوزير أولافيد ، وجدت أنها عاجزة حتى عن مد تلك اليد ، إذ هب الناس جميعاً — حكاماً ومحكومين — ينعتون « المكتب المقدس » بأنه شبح الماضى العفن الذى آن له الأوان لكى يدفن إشفاقاً على حاله .

ولقد شاءت الأقدار أن يكون آخر ضحايا محاكم التفتيش —وهى تحتضر— تلك السيدة الشمطاء العزلاء ، التى لم يكن لها أهل أو ولد ، فى مدينة أشبيلية . وقد أحرقت تلك السيدة العاجزة سنة ١٧٨١ ، ليشيعها التاريخ الأوربى على أنها آخر أضحية عجفاء لنمر انكسرت أنيابه ، فلم يقو على صيد سواها ! !

وانبلج نور فجر جديد ، وأسدل الستار على ظلام رهيب ، فبعد ذلك الحادث المخزى بسنوات ثمان اندلعت نيران « الحرية والإخاء والمساواة » فى الثورة الفرنسية الكبرى ، التى زلزلت أركان أوربا جميعاً . .



رقم الإيداع	١٩٧٨/٤٥٦١
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٤١٨ - ٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

into goodly towns; for there the folks are understanding, and mark them for heretics at the very first word. They love to creep round the hamlets and villages, and even to the children that herd the geese in the field. Formerly they went even in clerical garb, and never swore for any occasion, whereby indeed men knew them. Now they change their life and their heresy even as changing moon; now they wear sword and dagger, long hair and long garments; and now they swear oaths. There was a day when they had rather suffered death, when they said that God had forbidden to swear; and now their masters allow them to swear oaths. Say, wretched heretic, if God hath forbidden it, how then can thy master allow it ? What devil hath given him such power -to a cobbler or weaver or spurrier such as thou callest thy spiritual master ? How may such an one allow what God hath disallowed ? Ah, the man shall turn twelve christian folk to heretics, and thereby shall he atone for his sinful oath ! Fie, miserable heretic, rather shalt thou thyself be burned, than that thou shalt make another heretic like unto thyself !"

11 — **Berthold von Regensburg on "Pardoners and Heretics."**

"They have a good hundred and a half of heresies, the one believeth not as the others... Nevertheless, however, many names they have, all alike are called Ketzer. And that is not without cause in God's providence that they are called Ketzer. Now wherefore are they not called Hunder, or Mauser, or Vogler, or Schweiner, or Geiszer, after dogs, mice, fowls, swine, or goats ? God called the creature a Ketzer for this cause, that he can creep secretly where no man seeth him, as doth also the cat, who can make herself most soft and secret; and there is no beast, for all her soft ways, that hath so soon done so great evil as the cat; but most of all and swiftest of all in summer. Let all folk beware of the cat!(12) She goeth apart and licketh a toad wherever she may find him, under a hedge or wherver he may be found, until the toad begin to bleed. Thus his poison maketh the cat thirsty, then she maketh for the water whence christian-folk are wont to cook or drink, and she drinketh thereof and defileth the folk so that many a man lieth half a year sick thereafter, or a whole year, or his whole life long, or taketh sudden death thereby.... Therefore is the heretic called Ketzer, because he is like no beast so much as a cat, for he goeth so spiritually to good people and speaketh such sweet words at the first and can do all as softly as the cat herself; and even so swiftly hath he defiled a man's body. Thus doth the heretic, he will rehearse to thee so sweet speeches of God and the angels that thou wouldst swear a thousand oaths he were an angel himself, yet is he a devil in human form; and he saith he will show thee an angel and will teach thee so that thou shalt see God with thy bodily eyes, and so much of this sort will he say to thee that he will soon have turned thee from thy christian faith and there shall be no more hope for thee. Therefore he is called Ketzer, because his soft ways are as baneful as a cat's; yea, and far more baneful ! The cat will defile they body, the heretic defileth the soul and body, so that all hope of both is lost.

So baneful is he that, had I a single sister in the whole countryside wherein there was but one heretic, I should live in fear for her sake because of that single heretic, so destructive is he. Therefore let all folk take good heed of him. I hold- God pardon the word- my christian faith as fast as every christian man rightly should; but before I would dwell knowingly for a single fortnight in a house wherein a heretic was, rather would I dwell for a whole year in one house with five hundred devils. What heretic ! art thou perchance here in this congregation? Now God Almighty grant that none be before me here ! Moreover, they go not

(11) Coulton, G.G., A Medieval Garner, London, 1910, PP. 357 - 60.

(12) The word "cat" in German is Katze.

10 — **Veit Dietrich on Luther's Prayers.**

"No day passes that he does not give three hours to prayer, and those the fittest for study. Once I happened to hear him. Good God ! how great a spirit, how great a faith, was in his very words ! With such reverence did he ask, as if he felt that he was speaking with God; with such hope and faith, as with a Father and a Friend. "I know," he said, "that Thou art our Father and our God. I am certain, therefore, that thou art about to destroy the persecutors of Thy children. If Thou does not then our danger is Thine too. This business is wholly Thine, we come to it under compulsion..."

---

(10) Philip Schaff, History of the Reformation, New York, 1892, P. 4 63. Veit was Luther's faithful scribe and companion.

9 — Martin Luther's "Freedom to Preach"

"At last the storm is about my ears. Now I am an arch-heretic, a heretic, a renegade, a false teacher, a miscreant, a blasphemer and all the rest... When such people, who do not know the Bible, nor understand what words mean either in Latin or German, and furthermore insult me with such extreme slander, they make me sick.... When these men abuse the scriptures and give the lie to the Word of God, they call it improving and honouring Christianity. But when one teaches that it is not necessary to buy indulgences and that it is not right to skin poor folk of their money, that is dishonouring the Church and sacrament and vexing Christians. I only say this so that from now on their language and their new thieves' slang may be understood.... O God, help the truth alone and nobody else. Amen."

(9) Ibid., PP. 162 - 3.

8 — **Martin Luther on Indulgences.**

"Both the Pope and the higher clergy who are so liberal in granting indulgences for the temporal support of the churches are more credulous than credulity itself if for the sake of God they are not equally or even more solicitous for grace and the cure of souls. They have freely received all they have, and they ought freely to give it. "But they are corrupt and have become abominable in their way"....

(8) Quoted by Atkinson, op. cit., P. 124.

7 — Errores Martini Luther

(1) Haeretica sententia est, sed usitata, sacramenta Novae Legis iustificantem gratiam illis dare, qui non ponunt obicem.

(2) In puero post baptismum negare remanes peccatum, est Paulum et Christum simul conculcare....

(4) Imperfecta caritas morituri fert secum necessario magnum timorem, qui se sola satis est facere poenam purgatorii, et impedit introitum regni.

(5) Tres esse partes poenitentiae: contritionem, confessionem et satisfactionem, non est fundatum in sacra Scriptura nec antiquis sanctis christianis doctoribus....

(9) Dum volumus omnia pure confiteri, nihil aliud facimus, quam quod misericordiae Dei nihil volumus relinquere ignoscendum.

(10) Peccata non sunt ulli remissa, nisi remittente sacerdote credat sibi remitti, immo peccatum maneret, nisi remissum crederet : non enim sufficit remissio peccati et gratiae donatio, sed oportet etiam credere esse remissum....

(17) Thesauri Ecclesiae, unde Papa dat indulgentias, non sunt merita Christi et Sanctorum.

(18) Indulgentiae sunt piae fraudes fidelium, et remissiones bonorum operum; et sunt de numero eorum, quae licent, et non de numero eorum, quae expediunt ...

(23) Excommunicationes sunt tantum externae poenae nec privant hominem communibus spiritualibus Ecclesiae orationibus...

(25) Romanus Pontifex, Petri successor, non est Christi vi carius super omnes totius mundi ecclesias ab ipso Christo in beato Petro institutus...

(27) Certum est, in manu Ecclesiae aut Papae prorsus non esse statuere articulos fidei, immo nec leges morum seu bonorum operum...

---

(7) Symbolorum, pp. 257 - 260. (Damnati in Bulla "Exsurge Domine", 15 Iunii 1520. Pontificate of Leo X (1513 — 1521).

6 — **Errores Ioannis Hus**

(7) Petrus non est nec fuit caput Ecclesiae sanctae catholicae....

(13) Papa non est verus et manifestus successor Apostolorum principis Petri, si vivit moribus contrariis Petro : et si quaerit avaritiam, tunc est vicarius Iudae Iscarioth. Et pari evidentia Cardinales non sunt veri et manifesti successores collegii aliorum Apostolorum Christi, nisi vixerint more Apostolorum, servantes mandata et consilia Domini nostri Iesu Christi....

(19) Per censuras ecclesiasticas excommunicationis suspensionis at interdicti ad sui exaltationem clerus populum laicalem sibi suppeditat, avaritiam multiplicat, malitiam protegit, et viam praeparat antichristo. Signum autem evidens est, quod ab antichristo tales procedunt censurae, quas vocant in suis processibus fulminationes, quibus clerus principalissime procedit contra illos, qui denudant nequitiam antichristi, qui clerum pro se maxime usurpabit.

(20) Si Papa est malus et praesertim, si est praescitus, tunc ut Iudas apostolus est diaboli, fur, et filius perditionis, et non est caput sanctae militantis Ecclesiae, cum nec sit membrum eius....

(23) Papa non debet dici sanctissimus, etiam secundum officium; quia alias rex deberet etiam dici sanctissimus secundum officium, et tortores et praecones dicerentur sancti; immo etiam diabolus deberet dici sanctus, cum sit officiarius Dei.....

---

(6) Symbolorum, pp. 228 - 231. Pontificate of Martinus V (1417 - 1431).

(14) Licet alicui diacono vel presbytero praedicare verbum Dei absque auctoritate Sedis Apostolicae sive episcopi catholici.

(15) Nullus est dominus civilis, nullus est praelatus, nullus est episcopus, dum est in peccato mortali.

(16) Domini temporales possunt ad arbitrium suum auferre bona temporalia ab Ecclesia, possessionatis habitualiter delinquentibus, id est ex habitu, non solum actu delinquentibus.

(17) Populares possunt ad suum arbitrium dominos delinquentes corrigere.

(18) Decimae sunt purae eleemosynae, et possunt parochiani propter peccata suorum praelatorum ad libitum suum eas auferre.

(19) Speciales orationes, applicatae uni personae per praelatos vel religiosos, non plus prosunt eidem, quam generales, ceteris paribus...

(30) Excommunicatio Papae vel cuiuscunque praelati non est timenda, quia est censura antichristi.

(33) Sylvester Papa et Constantinus imperator errarunt Ecclesiam dotando...

(36) Papa cum omnibus clericis suis possessionem habentibus sunt haeretici, eo quod possessiones habent, et consentientes eis, omnes videlicet domini saeculares et ceteri laici.

(37) Ecclesia Romana est synagoga satanae, nec Papa est proximus et immediatus vicarius Christi et Apostolorum...

(39) Imperator et domini saeculares sunt seducti a diabolo, ut Ecclesiam ditarent bonis temporalibus.

(40) Electio Papae a Cardinalibus a diabolo est introducta.

(41) Non est de necessitate salutis credere, Romanam Ecclesiam esse scupremam inter alias ecclesias.

(41) Fatuum est credere indulgentiis Papae et episcoporum...

5 — Errores Ioannis Wicleff.

(1) Substantia panis materialis et similiter substantia vini materialis remenent in sacramento altaris.

(2) Accidentia panis non manet sine subiecto in eodem sacramento.

(3) Christus non est in eodem sacramento identice et realiter (in) propria praesentia corporali.

(4) Si episcopus vel saceredos existat in peccato mortali, non ordinat, non consecrat, non conficit, non baptizat.

(5) Non est fundatum in Evangelio, quod Christus Missam ordinaverit.

(6) Deus debet oboedire diabolo.

(7) Si homo fuerit debite contritus, omnis confessio exterior est sibi superflua et inutilis.

(8) Si Papa sit praescitus et malus, et per consequens membrum diaboli, non habet potestatem super fideles sibi ab aliquo datam, nisi forte a Caesare.

(9) Post **Urbanum** VI non est aliquis recipiendus in Papam, sed vivendum est more Graecorum sub legibus propriis.

(10) Contra Scripturam sacram est, quod viri ecclesiastici habeant possessiones.

(11) Nullus praelatus debet aliquem excommunicare, nisi prius sciat eum excommunicatum a Deo: et qui sic excommunicat, fit ex hoc haereticus vel excommunicatus.

(12) Praelatus excommunicans celericum, qui appellavit ad regem vel ad concilium regni, eo ipso traditor est regis eregni.

(13) Illi, qui dimittunt praedicare sive audire verbum Dei propter excommunicationem hominum, sunt excommunicati, et in Dei iudicio traditores Christi habebuntur.

---

(5) Conc. Constantiense (1414 - 1418), in Symbolorum, pp. 224-226. Pontificate of Martinus V (1417 - 1431).

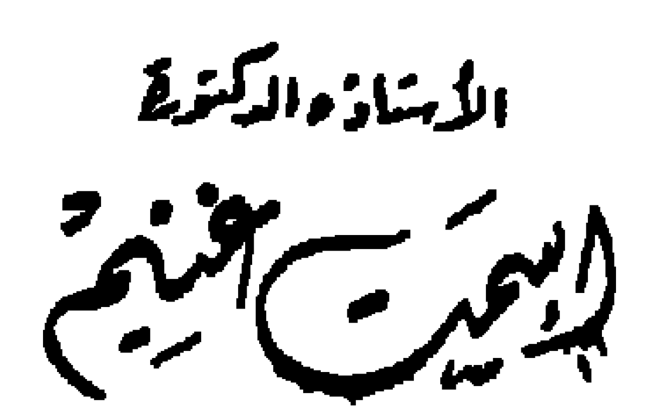
4 — Errores Beguardorum et Beguinarum.

(1) "Quod homo in vita praesenti tarnum et talem perfectionis gradum potest acquirere, quod reddetur penitas impeccabilis et amplius in gratia proficere non valebit : nam, ut dicunt, si quis semper posset proficere, posset aliquis Christo perfectior inveniri.

(2) Quod ieiunare non oportet hominem nec orare, postqueam gradum perfectionis huiusmodi fuerit assecutus ; quia tunc sensualitas est ita perfecte spiritui et rationi subiecta, quod homo potest libere corpori concedere quidquid placet.

(3) Quod illi, qui sunt in praedicto gradu perfectionis et spiritu libertatis, non sunt humanae subiecti obedientiae, nec ad aliqua praecepta Ecclesiae obligantur ; quia (ut asserunt) ubi spiritus Domini, ibi libertas.

(4) Quod homo potest ita finalem beatitudinem secundum omnem gradum perfectionis in praesenti assequi, sicut eam in vita obtinebit beata....



(4) Conc. Viennense (1311 - 1312), in Symbolorum, P.P. 207-208. Pontificate of Clemens V (1305 - 1314).

3 — De indulgentiis

"Antiquorum habet fida relatio, quod accedentibus ad honorabilem basilicam principis Apostolorum de urbe concessae sunt magnae remissiones et indulgentias peccatorum. Nos... huiusmodi remissiones et indulgentias omnes et singulas ratas et gratas habentes, ipsas auctoritate apostolica confirmamus et approbamus..."

(3) Symbolorum, p. 204. Pontificate of Boniface VIII (1294 - 1303).

2 — De errore Abbatis Ioachim.

"Damnamus ergo et repromaus libellum seu tractatum, quem Abbas Ioachim edidit contra Magistrum Petrum Lombardum, de unitate seu essentia Trinitatis, appellans ipsum haereticum et insanum pro eo, quod in suis dixit Sententiis: Quoniam quaedam summa res est Pater, et Filius, et Spiritus Sanctus, et illa non est generans, neque genita, neque procedens. Unde asserit, quod ille non tam Trinitatem, quam queternitatem astruebat in Deo, videlicet tres personas, et illam communem essentiam quasi quartam..."

(2) Conc. Lateranense IV (1215), op. cit., P. 190. Pontificate of Innocent III (1198-1216).

APPENDIX

Latin data discussed in the Context

1 — De haereticis evitandis

Cap. 27. «... Eapropter, quia in Gasconia, Albegesio et partibus Tolosanis et aliis locis ita haereticorum, quos alii Catharos, alii Patarenos; alii Publicanos, alii aliis nominibus vocant, invaluit damnata perversitas, ut iam non in occulto, sicut aliqui, nequitiam suam exerceant, sed suum errorem publice manifestent et ad suum concensum simplices attrahant et infermos — eos et defonsores et receptatores eorum anathemati decernimus subiacere, et sub anathemate prohibemus, ne quis eos in domibus vel in terra sua tenere vel fovere negotiationem cum eis exercere praesumat."

(1) Conc. Laternanense III (1179). in Enchiridion Symbolorum, P. 175. Pontificate of Alexander III (1159 - 1181).

BIBLIOGRAPHY

and

APPENDIX

(READ FROM LEFT TO RIGHT)

Limbroch, P., Inquisitionis, Liber sententiarum inquisitionis ;Tolosanae. Amesterdam, 1692.

Lodge, R., The Close of the Middle Ages (1273 - 1494). London, 1928.

Masson, G., Mediceral France. London, 1917.

Mansi, J., Sacrorum Conciliorum nova et amplissima Collectio (31 in fol.), Venise, 1769.

Molinier, C., Etudes sur quelques manuscrits des bibliotheques d'Italie concernant l'Inquisition et les croyances heretiques du XIIe an XVIIe siécle. Paris, 1887.

Petri Monachi Coenobii Vallium Cernaii, Historia Albigensium, in Patrologia Latina, Vol. CCXIII.

Previté - Orton, C.W., A History of Europe (1198-1373). Vol. III. (Methuen Series).

Schmidt, C., Histoire des Cathares ou Albigeois. Paris, 1847 - 9.

Sismondi, de J.C.L., A History of the Italian Republics (Everymans English Edition).

Turber ville, A.S., Medieval History of the Inquistion. London, 1920.

Vacandard, L'Inquisition. Paris, 1914.

Waddell, H., Peter Abelard. London, 1933.

Wolf, J.C., Historia Bogomilorem. Wittenberg, 1742.

Dictionnaire de Theologie Catholique, t. XII.

Douais, Documents pour servir à l'histoire de l'Inquisition dans le Langued' oc. Paris, 1900.

Dutaillis, C., La monarchie feodale en France et en Angleterre (Xe-XIIIe Siécle). Paris, 1933.

Etienne de Bourbon, Anecdotes historiques. Paris, 1877.

Everard de Bethune, Liber antihaeresis. (Vol. XII), (Grester Edition, 1614).

Fredericq, P., Corpus documentorum Inquisitionis haereticae Pravitatis Neerlandicae. Gand, 1889.

Froude, J.A., Lectures on the Council of Trent. London, 1914.

Germain, Inventaire inédit concernant les archives de l'Inquisition de Carcasonne. Montpellier, 1856.

Guiraud, J.H., Histoire de l'Inquisition au Moyen Age. Paris, 1935.

Hardouin, Collectio maxima Conciliorum generalium et provincialium. Paris, 1715.

Havet, J., L'heresie et le bras séculier au Moyen Age jusqusau XIIIe Siécle. Paris, 1896.

Hughes, P., A History of the Church (2 vols.). London, 1935.

Hume, M.A.S., Spain, its Greatness and Decay (1479 - 1788). Cambridge, 1913.

Joergensen, J., Saint François d'Assisie, (traduit du danois par Teodor de Wyzews). Paris.

Johnson, A.H., Europe in the Sixteenth Century. London, 1921.

Kaltner, Konrad Von Marburg und die Inquisition in Deutschland. Prague, 1882.

Langlois, C.V., L'Inquisition d'aprés des travaux recents. Paris, 1901.

Lea, H.C., History of the Inquisition in the Middle Ages. New York, 1888.

——— History of the Inquistion in Spain. 1905 - 1908.

BIBLIOGRAPHY

Alanus, De fide Catholica adversus haereticos et Waldenses. In Patrologia Latina, Vol. CCX.

Atkinson, J., Martin Luther and the Birth af Protestantism. London, 1968.

Beer, M., Social Struggle in the Middle Ages (trans. by J.H. Stenning.)

Benoit, J., Histoire des albigeois et des Vaudois au barbets. Paris, 1691.

Berard, A., Les vaudois, leur histoire sur les deux versants des Alpes du IVe au XVIIIe Siécle. Paris, 1893.

Bernard, Gui, Manuel de l'Inquisition, (ed. et trad. par Mollat, G.). Classiques de l'Histoire de France. Paris, 1926 - 7.

Bibliotheque du Vatican, ms. Lat. 4030, (Procés Inquistitoriaux).

Bibliotheque Nationale de Paris, Fonds Doat, n. XXI - XXXI - XXXV. (Procés Inquisitoriaux).

Bibliotheque Municipale de Tolouse, ms. Lat. 609. (Interrogatoires d'heretiques et Inquisitions).

Cambridge Medieval History, Vol. VI, "Heresies and the Inquisition in the Middle Ages, by A.S. Tuberville).

Calmette, J., Le monde feodal - Paris, 1937.

Chanson de la Croisade contre les Albigeois. (ed. Meyer, P., 2 Vols.), Paris, 1875 - 9.

Chesterton, G K., St. Francis of Assisi. London, 1923.

Coulton, G.G., A Medieval Garner. Human Documents from the four Centuries Preceding the Reformation. London, 1910.

Delisle, L., Catalogue des actes de Philipe Auguste. Paris, 1856.

Denzinger, H., Enchiridion Symbolorum Definitionum et Declarationum de Rebus Fidei et Morum. Friburgi Brisgoviae, 1911.

BIBLIOGRAPHY

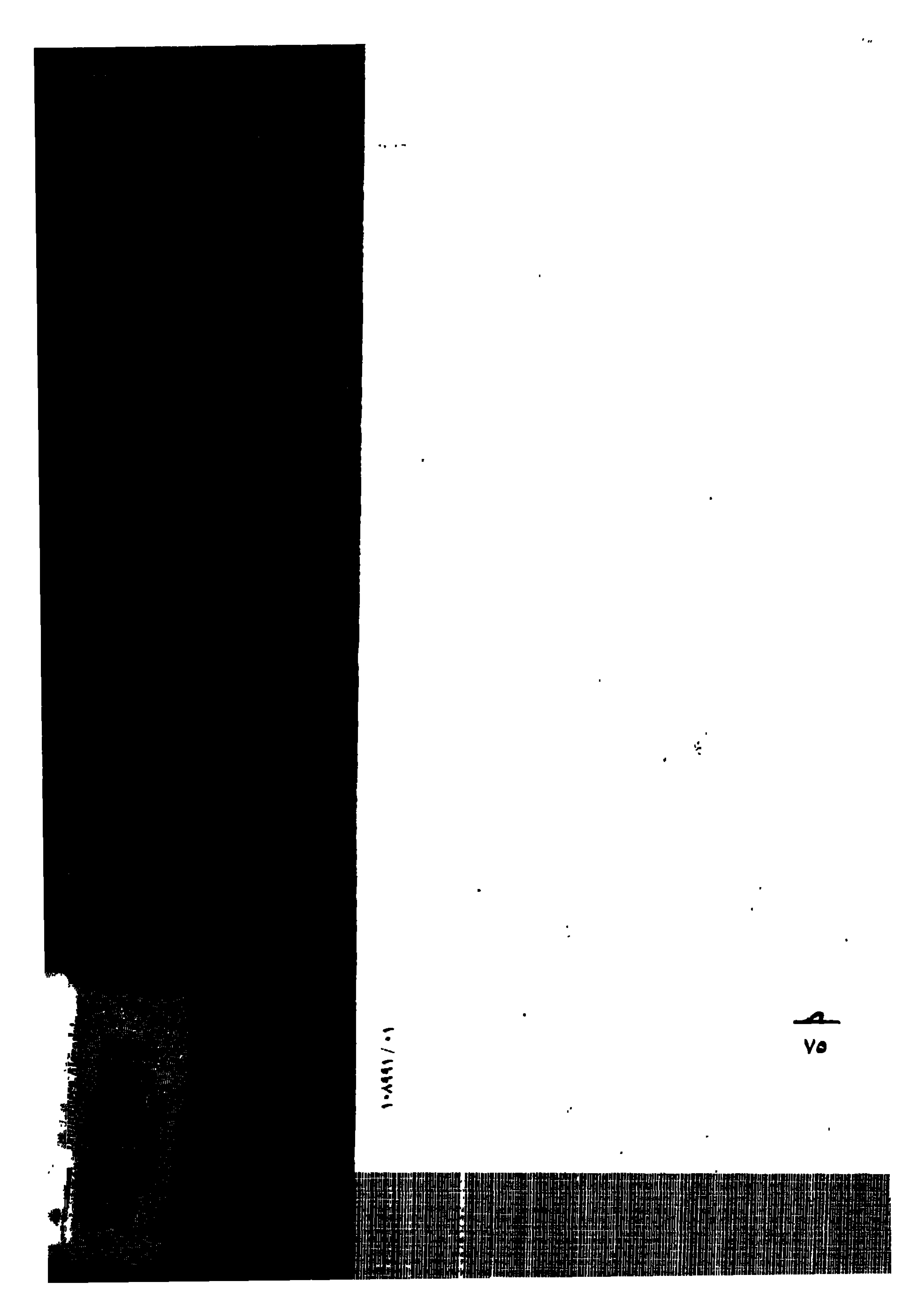
AND

APPENDIX


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


٧٥